وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٢٧١)

شرح الكلمات:

نذرتم –نذر: أوجب على نفسه ما ليس بواجب؛ أوجب على نفسه تبرعا من عبادة أو صدقة أو غير ذلك. وقيل النذر ما كان وعدا على شرط (الأقرب)، كأن يقول أحد: إذا تمكنت من إنجاز عمل كذا فسوف أتصدق بكذا.

التفسير: يتبين من كلمات الآية أن ما تنفقون وتنذرون يجب أن يكون صالحا للنفقة والنذر. يتضح من الحديث أن النبي ﷺ لم يكن يحب النذر، ولكن إذا نذر أحد شيئا فمن واجبه أن يفي بنذره (مسلم، النذر). ولم يحبذ النبي النذر لأنه نوع من المساومة، والمساومة مع الله عز وجل ليست بأمر مستحب. على الإنسان أن ينهمك في إعطاء الصدقات وفعل الخيرات والدعاء بدلا من النذر. نعم، إذا تصدّق الإنسان وفعل الخير ودعا ربه، ثم نذر شيئا تعبيرا عن الشكر لله فلا حرج في ذلك. نستنبط هذا من قول الإمام المهدي، فعندما كان يأتيه الناس طالبين الدعاء كان يقول: سوف أدعو لك، ولكن عليك أن تحدد في قلبك مبلغا تنفقه في خدمة الدين عندما يتحقق ما تريد. ويتبين من هذا أن الإنسان لو نذر شيئا شكرا لله على تحقيق ما أراد فلا حرج في ذلك؛ بشرط أن يقوم إلى جانب ذلك بالتوسل والتضرع والبكاء إلى الله، وإيتاء الصدقات وفعل الخيرات.

وبقوله (فإن الله يعلمه) بيّن أنكم إذا أنفقتم في سبيل الله أو نذرتم نذرا على أنفسكم، ثم وفيتم بنذركم هذا.. فإن الله يعلم ذلك، ويعلم كم أعطيتم وكم أنفقتم، ويعلم بأي إخلاص وبأي عاطفة إيمانية تصدقتم، ولسوف يُجازيكم بحسب هذا، ولن يضيع إنفاقكم هذا، بل سيُنـــزل بسببه بركات كبيرة.

ويتضمن قوله (فإن الله يعلمه) إشارة لطيفة إلى أن الإنفاق والنذر وحدهما لا يكفيان، بل لا بد أن تكون النية أيضا صالحة، لأن النية تتعلق بالله تعالى، وهو يعلم ما إذا كان الإنفاق للرياء والسمعة والصيت، أم لنيل رضوان الله ولخدمة الإنسانية.

وقوله (وما للظالمين من أنصار) يوجه النظر إلى أن كل إنسان يكون له أصدقاء قليلون أو كثيرون، ولكن الظالم عندما يحتاج إلى عون من أهل الدنيا فإن أصدقاءه الذين يستطيعون أن ينصروه هم أيضا يتخلون عنه، فيصبح وحيدا طريدا.

أما من الناحية الروحانية فالعبارة تعني أن النصير الحقيقي هو الله وملائكته والصالحون من عباده وأوليائه، ولكن الظالم لا ينال نصرة أحد منهم، فيصبح وحيدا منبوذا جزاء على جريمته.

والمراد من (الظالمين) هنا من يترددون عند الإنفاق في سبيل الله، ويبخلون، ويرون أن الإنفاق يسوقهم إلى الإفلاس والفقر. هؤلاء بظنهم وعملهم هذا يظلمون أنفسهم. يقول الله: إن نظرتهم هذه نظرة خاطئة من الناحية الدنيوية والروحانية أيضا. إن الذي ينفق على الآخرين ماله، ويساهم في الأعمال الخيرية، أو في المرافق القومية، فإن الناس يُقبلون على مساعدته إذا احتاج ذلك، أو على الأقل يتعاطفون معه ويشجعونه معنويا، ولكن الذي يكف يده عن مساعدة الفقراء ولا يواسي الناس عند حلول الشدائد بهم فإنه يبقى ثَمِلاً وقت الرخاء، أما عند نزول المصائب والآفات به فإن الناس لا يبدون نحوه أي مواساة.. مع أن كل إنسان –مهما كان كبيرا – بحاجة إلى عون الآخرين عند حلول المصيبة به.

أما من الناحية الروحانية فالبديهي أن الذي لا ينفق في سبيل الله تعالى أو لا يهتم بالعناية والنهوض بالفقراء فلن يحظى بنصرة من الله الملائكة، أو ينال دعاء من عباد الله الصالحين. إنه يبقى محروما من هذه النعم كلها، ويلقي بنفسه إلى التهلكة.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٧٢)

شرح الكلمات:

يكفِّر عنكم –كفّر الشيء: ستره. كفّر الله له الذنب: محاه. وكفّر عن يمينه: أدّى عنها الكفارة (الأقرب). فقوله: (يكفِّر عنكم) يعني يستر تقصيراتكم ويمحو ذنوبكم.

التفسير: في هذه الآية قال الله عن الصدقات التي يقوم بها الإنسان علنا (فنعما هي) وعبارة (نعما هي) أصلها: نِعْم هي (تفسير الخازن). وهذا أسلوب مخصوص بالمدح، والمراد: نِعم الشيءُ شيئا. أما الصدقات التي ينفقها سرا فقال عنها (فهو خير لكم) ذلك لأن الإنفاق العلني يؤثر في الآخرين ويحضهم على الإنفاق، أما الإنفاق السرّي فيؤثر في قلب المنفق نفسه ويحميه من الكبر والمن والأذى. فكأن قوله (فنعما هي) إشارة إلى سعة نطاق هذه الصدقات وإلى كونها من درجة أدنى، وقوله (خير لكم) إشارة إلى ضيق نطاقها وكونها من درجة عليا. وقوله (إن تبدوا) إشارة إلى النفقات القومية، أما قوله (إن تخفوها) فإشارة إلى النفقات الفردية؛ الإنفاق الأول ينفع القوم كله والثاني ينفع صاحبه فقط ولذلك أضاف (خير لكم). وقوله (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) يبدو أكثر أهمية من زاوية نظر أخرى، لأنه لم يحصر خيرها في أحد، أما في الإنفاق السري فبيّن أنه خير لكم. وذلك لبيان أنكم لو أظهرتم الصدقة فسوف ينتفع بها الآخرون أيضا، لأن الناس عندما يرون أحدا يتصدق يقلدونه، ويتحمسون للعناية بالفقراء. لقد قال الرسول ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) (البخاري، الجمعة). فالراعي تقلده رعيته، فإذا تصدق أحد فإن أبناءه وإخوته وأقاربه وخدمه وأصدقاءه ومعارفه سوف يقلدونه ويتصدقون، وهكذا ينتشر هذا الخير.

والفائدة الأخرى للإنفاق العلني أن الجيل القادم ينتفع به، ويتعود الصغار على البذل في سبيل الله، لأنهم عندما يرون كبارهم يتصدقون يعرفون أن الصدقة عمل حسن، وهكذا تتم تربيتهم على الخير.

والفائدة الثالثة للإنفاق العلني أن الناس لا يعرفون أن فلانا يستحق العون في بعض الأحيان، ولكن عندما يرون أحدا يعينه فإنهم يعرفون بحاجته ويمدون له يد العون.

وقوله (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) يعني أن الإنفاق السري خير طريق لإصلاح أنفسكم، لأن الرياء المحتمل مع الإنفاق العلني لا يتولد مع الإنفاق الخفي. بل ذكر جزاء آخر فقال: إذا سترتم فقر الآخرين عند الإنفاق عليهم فإن الله يعاملكم بنفس المعاملة (ويكفر عنكم من سيئاتكم). و(من) يمكن أن تكون تبعيضية أو زائدة. فالمعنى الأول، باعتبار (من) للتبعيض.. أن الله سوف يمحو بعض سيئاتكم، ولذلك لم يقل (يكفّر لكم) بل قال (يكفر عنكم)، ذلك أن ذنوب الإنسان على نوعين: نوع يتعلق بالناس، ونوع يتعلق بالله تعالى. فالله يغفر ما ارتكب الإنسان من ذنوب في حقه، ولكنه لا يغفر الذنوب المتعلقة بالعباد ما لم يغفرها هؤلاء. فكأنه قال: لو سترتم عيوب الفقراء، وأنفقتم عليهم في الخفاء حتى لا يعرف الآخرون ضعفهم فإن الله تعالى سوف يمحو بعض سيئاتكم، أي يغفر لكم ذنوبكم في حقه.

والمعنى الثاني أن الله يؤدي كفارة مساوئكم نيابة عنكم؛ أي أن الله يُعطي مَن ارتكبتم الذنوب في حقه الجزاءَ المناسب عليها، ويقول له: هذا تعويض عما ارتكبه عبدي في حقِّك فاغفر له. وهكذا يدبر لمغفرة الذنوب التي ارتكبها الإنسان في حق غيره من العباد. ذلك أن الإنسان إذا وصل في عمل الخير حدا معنيا فإن الله يصبح وكيلا له أو محاميا عنه، فيدبر لمغفرة ذنوبه في حق الآخرين، ويؤدي من عنده كفارة ذنوب العبد.

ومن معاني العبارة أيضا أن الله يستر عيوبكم عن عيونكم. الحقيقة أن الإنسان – مهما قيل له أن ذنبه قد غُفر –يبقى في قلبه اختلاج وقلق بأن ارتكب ذنبا كذا،

ولا ينفك يشعر بالندم والخجل، لذلك يقول الله إنه سوف يستر ذنوبكم عن أعينكم. أي أنه سوف يُنسيكم ذنوبكم ولن يبقى لها أثر في أذهانكم وذاكرتكم.
سبحان الله! ما أكمل القول الإلهي: (ويكفر عنكم من سيئاتكم) وأبلغه! إنه قول رائع بليغ لا يمكن أن يُستبدل بعبارة أخرى، لأنه لا يدع نوعا من الذنوب إلا غطاه. وقال الأخفش إن (من) زائدة تفيد التوكيد (إملاء ما من به الرحمان). فيكون المعنى أن الله سوف يمحو كل سيئاتكم محوا تاما.
وهنا ينشأ سؤال: لماذا جعل الله الزكاة والصدقات كلا على حدة؟
فلنعلم أن الزكاة تُعتبر نوعا من الضريبة، لأن الحكومة هي التي تجمعها. ثم إن الزكاة فرضٌ من المستحيل أن يتهرب منه الإنسان أو ينقص منها. وفرض الله الزكاة لينفق كل ثري بعض ماله ليكون كفارة عن ذنوبه، ولكي تتوفر النفقات للفقراء إلى حد ما. ولكن إلى جانب ذلك دبَّر الله طريقا آخر، وهو الصدقات. كي يتميز المخلص من غير المخلص، ولكي يتدرب الإنسان على الإنفاق بيده، ولكي يجد فرصة للإنفاق سرا وللإنفاق علنا. فالإنفاق السري يزيده حبّا ويُكسبه مغفرة لذنوبه، ويستر تقصيراته، والإنفاق العلني يحض الآخرين على الصدقات.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(٢٧٣)

التفسير: لقد بين الله هنا خمسة أمور:
أولا–قال للرسول ﷺ إن هدى الناس ليس واجبا عليك، وإنما هذا على الله تعالى. علما أن للهداية ثلاثة معان ١.الدلالة إلى الطريق، ٢. الإيصال إلى الطريق، ٣. المصاحبة في الطريق والإيصال إلى الغاية. النوع الأول من الهداية يشترك فيه العباد أيضا لأنهم يدلون الناس على الطريق، ولكن نوعي الهداية الآخَرَيْن فيخُصَّان اللهَ وحده.. ولا يملك أحد من العباد هذا. ولما كان المراد هنا من الهداية النوعيْن

الآخرين: الإيصال إلى الطريق والإيصال إلى الغاية.. لذلك قال الله تعالى إن الهداية ليست من واجبك، بل إذا رأى الله أحدا جديرا بذلك أبقاه على الصراط المستقيم، وإذا لم ير أحدا أهلا لها أسقطه.

ثانيا –قال إن ما تنفقون من خير فهو لأنفسكم، أي لصالحكم أنتم. لقد ذكر هنا كلمة (خير) لأن الخير يعني المال أو المال الجيد الذي اكتُسب بطريق شرعي أو كان بمقدار كاف. فبذكر كلمة (خير) بيّن أن الإنفاق ضروري، ولكن من الواجب أيضا أن يكون المال الذي تنفقونه مكتسبا بطريقة شرعية، ويكون بحسب مقدرتكم على الإنفاق. فلا يليق مثلا أن تربح مائة، وتنفق منها واحدا في سبيل الله وتقول إنك قد أدّيت حق الإنفاق.

ثالثا – قد يفكر أحدهم ويقول: إذا أنفقت المال على الناس فما الفائدة التي تعود علي؟ يقول الله: هذا التفكير غير سليم. إن ما تنفقه في سبيل الله هو بمثابة حبة يبذرها الفلاح في حقله، فتتحول إلى مئات الحبات، ولا يفكر الفلاح: لماذا أضيع الحبوب وألقيها في الأرض؟ كذلك لا تظنوا أنكم لو أنفقتم على الآخرين فلن تنتفعوا شيئا. كلا، بل إنفاقكم هذا يؤدي إلى ازدهار القوم، وازدهار القوم يؤدي إلى ازدهار الفرد. الحقيقة أن هذه الفكرة تنشأ عن قلة التدبر.. وإلا فإن الأمم الأوربية قد أدركت هذه النقطة أيما إدراك. فأثرياؤهم المشهورون بالانغماس في المتع المادية هم أيضا ينفقون دائما قدرا كبيرا من أموالهم للنهوض بالفقراء ولازدهار قومهم، وهكذا يتسببون قي تقوية المسيحية.

وفي قوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) بيّن أن إنفاق الأموال للنهوض بالفقراء مفيد حقا من الناحية القومية.. ولكن لا تجعلوا هذا هو الغاية من الإنفاق، وإنما يُتوقع من المسلم أن ينفق أمواله خالصة لوجه الله وابتغاء مرضاته.

وبهذه العبارة مدح الله عباده المؤمنين، إذ جاء بصيغة النفي، والمعنى أننا الآن نتوقع من المؤمنين أنهم لا ينفقون إلا لابتغاء مرضاة الله. وهذا الأسلوب للنفي أشد وقعا وتأثيرا من أسلوب النهي. مثلا إذا قلت لأحد الناس: أرجو أن تنتظرني، فهذا أبلغ

من قولك: اجلس هنا ولا تتحرك قبل مجيئي. فهذا الأسلوب اللطيف يدفعه بنفسه للعمل بما تريد.

ثم إن قوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) يشير أيضا إلى أن إنفاق المؤمنين —وإن كان يؤدي إلى الرقي القومي المادي والمنافع الدينية أيضا — إلا أن المؤمن من الطراز الأول أسمى من ذلك، فهو لا يفكر في الرقي المادي ولا يجعل نعم الجنة هدفا له.. بل إنما يعمل الحسنات بدافع أن يرضى الله عنه وينظر إليه بالود والمحبة.

رابعا- قال الله تعالى (وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون). وقد ذكره الله بعد قوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله)، مع أنه كان من الممكن أن يذكره بعد قوله (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم)، وقد أخّره لبيان معنى جديد آخر، وهو أن الذي ينفق أمواله ابتغاء مرضاة الله ينال جزاء أوفى على إنفاقه، ولكن الذي ينفق لأجل الدنيا فإنه ينال أجره في هذه الدنيا من رضاء الناس ومدحهم، ولكن لا نصيب له من جزاء الآخرة.

وأخيرا، نفى ظلما آخر يتعلق بالحرب التي تحدثت عنها الآيات السابقة، وقال (وأنتم لا تظلمون).. أي أن الأمة التي لا تنفق أموالها عند الحرب تهلك، وتتغلب عليها الأمم الأخرى، وتتعرض للمظالم والاضطهاد. يقول الله تعالى إنكم إذا أنفقتم أموالكم تغلبون ولا تقهركم أمة ولا تظلمكم.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢٧٤)

شرح الكلمات:

ضربا —ضرب في الأرض خرج تاجرا أو غازيا. وضرب: أسرع وذهب (الأقرب).

من التعفف–عفّ الرجل: كفّ عما لا يحِل ولا يجمُل قولا أو فعلا وامتنع (الأقرب). و(من) هنا سببية كما قوله تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا) (نوح: ٢٦). أي بسببها.

سِيما–الهيئة؛ العلامة (الأقرب).

إلحافا –ألْحَف السائل: أَلَحَّ. وألحف فلانا الثوب: ألبسه إياه (الأقرب). فمعنى الإلحاف أن يُلبسه سؤاله ولا يتركه، بل يستمر في سؤاله.

التفسير: هناك مبتدأ محذوف تقديره (هي للفقراء).. أي أن الصدقات التي نأمركم بها هي للفقراء للذين أحصروا. أو هناك فعل محذوف تقديره (اجعلوها للفقراء). ولم يذكر هنا الفاعل لـــ (أُحصروا) ولم يذكر السبب في حصرهم. ذلك أن الله أراد إطلاقها. لأن للإحصار أكثر من سبب محتمل. ومهما يكن فمن المؤكد أنهم لم يجلسوا عاطلين بسبب الكسل أو البطالة، إنما هم مضطرون لذلك؟ ولم يذكر هذا الاضطرار لأنه قد يكون بسبب العدو، أو لأنهم منهمكون في خدمة الدين ليل ونهار، فتُسد أمامهم أبواب كسب الرزق والضروريات. مثل أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا لعشقهم له ورغبتهم في صحبته وشغفهم بتعلم أمور الدين قد شُغلوا عن كل شيء آخر. ومثال ذلك سيدنا أبو هريرة الذي أسلم في المدينة قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أعوام. قال: كنت أسلمت متأخرا، لذلك قررت ألا أترك باب النبي. فكان يقضي حياته في المسجد، وإذا كانت له حاجة قضاها ثم يعود مخافة أن يقول النبي شيئا فيفوته سماعه. ولذلك نجد أنه –رغم قصر مدة صحبته للنبي –روى من الحديث أكثر مما رواه أي من الصحابة الذين كانت لهم صحبة أطول من صحبته أضعافا. شكاه أخوه إلى النبي وقال: يا رسول الله، إن أخي أبا هريرة يبقى عاطلا كل اليوم، فأنصحه ليشتغل ويعمل شيئا. فقال النبي: (لعلك تُرزق به)..أي من يدري؟ ربما يرزقك الله بفضل أبي هريرة[١٩].

[١٩] ورد في الترمذي، أبواب الزهد رواية بهذا المعنى ولكن لم يذكر فيها اسم أبي هريرة.

فيندرج إذن تحت قوله (الذين أحصروا في سبيل الله) أيضا أولئك الذين وقفوا حياتهم لخدمة الدين، وكرسوا أوقاتهم لله ولرسوله، ولا يتمكنون من الاشتغال بالتجارة أو أي عمل آخر.

ويندرج أيضا تحته أولئك الذين قال الله عنهم: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (التوبة: ١٢٢). ومثال ذلك ما يحدث هذه الأيام، فإن الناس يفِدون إلى مركز الجماعة الإسلامية الأحمدية من مختلف الأمصار للتفقه في الدين، فيتعلمون الدين هنا لسنوات عديدة، ثم يرجعون إلى بلادهم ويهدون قومهم. إذن فمن الإحصار أيضا أن يترك الإنسان أشغال الدنيا لتعلم الدين. إنه لا يترك أشغال الدنيا طلبا لراحة نفسه أو تكاسلا عن واجباته وإنما يمنعه من الاشتغال بها خدمته للدين وابتغاء مرضاة الله تعالى. هؤلاء لا يستطيعون ضربا في الأرض؛ أي أنهم منهمكون كل وقتهم في أمور الدين، ويولَعون بهذا العمل حتى أنهم لا يهتمون بكسب المعاش. إنهم رغم قلة مالهم يسكتون ويصونون أنفسهم من دناءة السؤال. ولذلك فإن الذين ليست عندهم عادة الفحص والتأمل في أحوال الناس فإنهم يظنونهم ميسوري الحال. يقول الله تعالى: من واجبكم أن تهتموا بأنفسكم بحاجاتهم، وأن تنفقوا عليهم نصيبا من أموالكم.

وقد يعني الإحصار أن الناس منعوهم من كسب المعاش، لأنهم سلكوا طريقا يؤدي إلى الله تعالى، كما حدث لكثير من المسلمين الأحمديين في جماعتنا الذين أُبعدوا من وظائفهم فقط لقبولهم الأحمدية، وأُغلقت في وجوههم أبواب كسب الرزق.

وقوله تعالى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) يدل على أنهم لا يمدون أيديهم بالسؤال، وبسبب تعففهم عن السؤال يظن الجاهل أنهم لا يحتاجون إلى معونة مادية. وإلا فإن عزة النفس هي التي طبعت على شفاههم الصمت مع أنهم أشد احتياجا من بعض الذين يُبدون حاجتهم للناس. هؤلاء هم أحق بأن تقدَّم لهم المعونة المالية وتُرفع عنهم مشاكلهم حتى يقوموا بالخدمة قيامًا أفضل.

لقد رأيت الناس يقولون: إنه لم يسأل حتى نعطيه؛ مع أن هذه الآية تؤكد أن من الواجب الشخصي للمؤمن أن يدرس الأحوال فيما حوله بعين فاحصة، ويتنبه إلى من يستحق الإعانة، ويتعرف على من منعته عزة النفس من السؤال.

وقوله (تعرفهم بسيماهم) لو كانت السيما بمعنى الهيئة.. فالمعنى أنك برؤية وجوههم تعرف أنهم في ضائقة مالية. وإذا كانت (سيما) بمعنى علامة.. فالمعنى أنك بالنظر إلى ملابسهم البالية أو أحذيتهم القديمة أو عمامتهم الخلقة أو أسلوب حياتهم البسيط.. تدرك على الفور أنهم بحاجة إلى معونة.

وهنا وجه الخطاب إلى النبي ﷺ لتنبيه المؤمنين إلى أن رسولنا ما دام يعرف هؤلاء المتعففين، فلماذا لا تعرفونهم أنتم؟ لماذا لا تنظرون إلى من حولكم بعيون متفرسة؟ ورد في الحديث أن أبا هريرة كان يقول: (اللهِ الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع. ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمرّ ولم يفعل. ثم مرّ بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمرّ ولم يفعل. ثم مرّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: أبا هِرّ. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الْحَقْ، ومضى فتبعته. فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنا في قدح قال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: أبا هرّ. قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الْحَقْ إلى أهل الصُّفّة فادْعُهم لي. قال: وأهل الصُّفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها.. فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن. ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدّ. فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: أبا هِر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال خذ فأعطهم، قال فأخذت القدح فجعلت أعطيه

الرجل فيشرب حتى يروي، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يرتوي ثم يرد عليَّ القدح فيشرب حتى يرتوي ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد ارتوى القوم كلهم. فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال: أبا هر، قال: بقيت أنا وأنت، قلت: صدقت يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب، فقعدت فشربت. فقال: اشرب، فشربت. فما زال يقول: اشرب حتى قلت: والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا. قال: فأرني، فأعطيته القدح. فحمد الله وشرب الفضلة) (البخاري، الرقاق).

ألا ما أعظم وأروع هذا الحادث دليلا على صدق قوله تعالى (تعرفهم بسيماهم). فالآية إذن بينان لميزة النبي ﷺ بأن رسولنا هذا يعرف المحتاجين بعلاماتهم. فيا معشر المسلمين، حاولوا أن تعرفوهم كما يعرفهم نبيكم.

وقوله (لا يسألون الناس إلحافا) لا يعني أنهم يسألون برفق من دون إلحاح، وإنما يعني أنهم لا يسألون الناس إطلاقا. فكلمة (إلحافا) ليست تحديدا لأسلوب السؤال، وإنما تبين شناعة السؤال.. أي أنه لا يمكن لهؤلاء أن يلحفوا، لأن الإلحاف يتطلب أن يلازم السائل المسئول دائما، ولكن هؤلاء قد وقفوا حياتهم لله تعالى، ولا يقبلون أن يلازموا الأثرياء كالظل، بل يخفون فقرهم، فيحرمون أنفسهم مما يجلبه السائل بسؤاله. فكأن هذه الجملة جاءت تفسيرا لفعل السؤال وليس تقييدا له. وهذا المعنى ثابت من قول النبي ﷺ: (ليس المسكين الذي ترده التمرة أو التمرتان، ولا اللقمة أو اللقمتان؛ وإنما المسكين الذي يتعفف) واقرءوا إن شئتم قوله تعالى (لا يسألون الناس إلحافا) (البخاري، التفسير). هذا هو معنى الإلحاف كما فسره النبي بنفسه. كذلك ورد في حديث آخر: (ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفطَن به فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس) (البخاري، الزكاة). يتضح من ذلك تماما أن المساكين نوعان: الأول الذين يسألون الناس، والثاني الذين لا يسألون الناس. وإنما يكسبون رزقهم، ولكن دخلهم ضئيل بحيث يستحقون المعونة.

على أية حال، هناك نهي شديد عن السؤال ورد في الأحاديث. لقد أجيز السؤال لثلاثة كما جاء في الحديث عن أنس؛ قال رسول الله ﷺ: (إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدْقع، أو لذي غُرْم مُفظع، أو لذي دم موجع) (المشكاة، الزكاة). فالأول الذي لا يجد شيئا للأكل، أو وصل إلى حال بحيث لا يجد طعاما بأي سبيل. والثاني: من أُغرِم غرامةً بدون ذنب ولا يستطيع أداءها. والثالث: الذي وقع في قتل خطأ ولا يستطيع أداء الديَة. لهؤلاء الثلاثة يجوز السؤال.. أو يعني الحديث أن يسأل لهم الآخرون لمساعدتهم، لا يقوموا هم بسؤال الناس.

وكذلك ورد في الحديث أن رجلين جاءا النبي ﷺ سائلين من الصدقة، فصوَّب نظره إليهما وقال:(إن شئتما أعطيتكما منها، ولا حظَّ فيها لغني ولا قوي مكتسب) (مسند ابن حنبل، ج٥ ص ٣٦٢). أي أنه لا حق لصاحب مال أو قادر على الكسب في مال الصدقة. كذلك قال النبي في مناسبة أخرى: (من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار. قالوا: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: ما يغدِّيه وما يعشِّيه).. أي ما يكفيه لوجبة الصبح ووجبة العشاء) (المرجع السابق، ج٤ ص١٨١).

فقوله (لا يسألون الناس إلحافا) يعني لا يسألون الآخرين شيئا، لأن السؤال في حد ذاته إلحاف.

الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٥)

التفسير: هنا بين الله أمورا أخرى تتعلق بالصدقة، فقال: إن عبادنا المؤمنين لا يخصصون للصدقة وقتا معينا أو يوما محددا، وإنما يتصدقون في الليل والنهار، ويتصدقون سرا وعلانية أيضا. لقد ذكر الليل والنهار والسر والعلانية لبيان أن الشريعة الإسلامية تقتضي من المؤمن ألا يأتي عليه وقت لا يشتغل فيه بالخيرات. ولنفس الغرض وزع الله الصلوات على الليل والنهار، وحدد للصيام والحج شهورا

قمرية. فبيّن هنا أن عبادنا المؤمنين يتصدقون في مختلف الأوقات حتى لا يخلو وقت من الصدقة، وتمضي رحلة حسناتهم على مدار اليوم وعلى مدار السنة أيضا بسبب الشهور القمرية، فلا يخلو منها جزء من الحسنات.

وقد ذكر الليل أولا ثم النهار، وذكر السر أولا ثم العلانية. وبعبارة أخرى جاء الليل ويقابله السر، ثم النهار وتقابله العلانية. وأشار بهذا الترتيب إلى أن المؤمنين يتصدقون بالليل خفيةً بعض الأحيان حتى لا يعرف الآخذ مَن المعطي؛ كيلا يخجل المتلقي، ولا يصاب المعطي بالكبر والرياء. ثم إنهم يتصدقون وقت النهار علانية لكي يراهم الآخرون، فيتحمسوا لمساعدة الفقراء، ويزدهر القوم.. وإلا فإنهم لا يريدون بالعلانية أي سمعة أو صيت لهم. فالليل تفسير للسر، والنهار تفسير للعلانية. وبيّن أن عباد الله يراعون الأوقات والأحوال.

وقد يعني (بالليل والنهار) أنهم يتصدقون في أحوال العسر واليسر كليهما.

والواقع أننا لو تدبرنا لوجدنا أن شرع الإسلام قد فرض نوعين من الصدقات:

الأول –الزكاة، وتجمعها الحكومة. وقد أسس هذا النظام لكي تُجمع الأموال بصورة مضمونة لإعانة الفقراء. الزكاة إلزامية تأخذها الحكومة كضريبة، ولذلك يشترك فيها الجميع، المخلص وغير المخلص. والثاني–الصدقة، وذلك لكي يتميز المخلصون الذين يتصدقون من تلقاء أنفسهم عن غيرهم، ويرتقوا في المدارج الروحانية. ولكي يكون عند الناس إحساس شخصي بالإنفاق في سبيل الله، وتزدهر فيهم عاطفة العناية والرعاية للفقراء.

ثم إن الزكاة قد فُرضت احتراما لعواطف الفقراء، لأن الحكومة هي التي تجمع أموال الزكاة، والمستحقون من الزكاة لا يعرفون من أعطاهم. ولكن إلى جانب ذلك فرض الصدقة لتحسين العلاقات بين المؤمنين، لأن الصدقة تزيدهم حبا.

إنه من سنن الدنيا أنه إذا لم يُلق الإنسان البذرة في الحقل لا ينبت زرعه، وبحسب هذه السنة يقول الله تعالى: يجب أن تنفقوا شيئا من عندكم حتى نجازيكم. ومما لا شك فيه أن الله قادر على أن ينبت الزرع من دون أن يلقي الإنسان البذرة في

الأرض. ولكن الله سنّ قانونا بأنه لا ينبت شيئا إلا إذا ألقى الإنسان البذرة في الأرض. ولذلك قال: أولا أَلْقُوا أنتم البذرة ثم انظروا كيف نزيدها ونباركها.

أما قوله (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فيشير إلى أن الفلاّح في بعض الأحيان يُحرَم من ثمرات بذره، كأن يحترق زرعه أو يُسرق أو تصيبه آفة.. فيستولي عليه الخوف والحزن، ولكن الله يقول: هذه الأمور لا تحدث عندنا. ثم إن الإنسان قد ينال محصولا يصل إلى سبعمائة حبة من كل حبة، ولكن الله يجازي بأكثر من ذلك؛ ويمن على الإنسان بنعم لا نهاية لها ولا انقطاع.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٧٦)

شرح الكلمات:

يتخبَّطه–يضربه شديدا. تخبطه الشيطان: مسَّه بأذًى (الأقرب).

المسّ–الجنون لأنه عند العرب يَعْرِض من مس الجن (الأقرب).

التفسير: في هذه الآية ذكر الله عند الحديث عمن يأكلون الربا أضرارا تترتب على أكله، وتوسع الشقة بين الأثرياء والفقراء، بل تدمر السلام العالمي.

يجب أن نتذكر أن كلمة الربا تشمل كل أنواع الربا. سواء كان هذا الربا من البنوك أو من مكاتب البريد أو من الجمعيات الخيرية أو من الأفراد فهو حرام في كل حال. ولكن الأسف أن المسلمين في هذا الزمن بدءوا يعرِّفون الربا تعريفات عجيبة مرتعبين من الأمم الأوربية. وقد قال البعض إن الإسلام نهى عن ذلك الربا الذي يأخذ فيه الإنسان مبلغا بربح كبير، ولكن إذا أخذ ربحا قليلا فهذا ليس من الربا الممنوع وإنما هو ربح. ومثال ذلك كمثل الكشميري الذي سئل: كم عندك من الأولاد؟ قال: ليس لي أولاد؟ وعندما قام وخرج من تحت قميصه الطويل أربعة

أطفال قال السائل: لمن هؤلاء الأولاد إذن؟ قال: وهل أربعة أولاد أولاد؟ كذلك يقول هؤلاء: وهل فائدة ٦ أو ٧% ربًا؟ إن الربا هي أن تكون الفائدة ١٠٠%!

أما البعض الآخر فقد أجازوا الربا بأخذ الفائدة من غير المسلمين . وأفتى غيرهم أن المسلمين المقيمين تحت حكومات غير إسلامية يجوز لهم أخذ الربا منها (فتاوى دار العلوم ديوبند، للمفتي محمد شفيع). حتى قال البعض إن الربا هو ما يكون فيه مال كبير. و لم يحددوا مقدار المال، وهكذا فتحوا الطريق لكل إنسان وأجازوا أخذ الربا للجميع. مع أن الرسول ﷺ اعتبر الربا لعنة شديدة حتى قال عنه إن آخذه ومعطيه وشاهده كلهم في النار (الترمذي، البيوع).

الحقيقة أن النهي عن الربا من أسمى تعاليم الإسلام. لا يريد الإسلام أن تجتمع الثروة في أيدٍ قليلة بينما يهلك الآخرون جوعا، وإنما يريد أن تتاح لكل واحد، على قدم المساواة، فرصة للتسابق في مجال الرقي، وأن تتأسس المدنية على أسس سليمة صحيحة، ولذلك لا بد من أن ينتهي التعامل الربوي بكل أنواعه. لأن أكبر ضرر للربا هو أن الأثرياء يتمكنون من الحصول على المال، فيستولون على التجارة والزراعة والحرفة بكل أنواعها، ويعيش الآخرون تحت رحمتهم، فالربا هو الذي كدس الثروة في هذا الزمن في أيد قليلة، ووسع الشقة بين الأثرياء والفقراء.

ولو تدبرنا لوجدنا أن الربا على نوعين: أحدهما ما يأخذه الثري من غيره من الأثرياء من المال لاستثمار أمواله، فيؤدي عليه الزيادة، كما يفعل التجار وأصحاب البنوك. والنوع الثاني ما يأخذه الفقير لسد حاجته من ثري كقرض، ثم يؤدي عليه الفائدة. وقد منع الإسلام من النوعين كليهما. و لم يمنع من إعطاء المال الآخر على زيادة فحسب، بل أيضا منع اقتراض المال من أحد على زيادة. وفضلاً عن منع التعامل الربوي، فإنه جرَّم الشاهدين عليها وكاتبيها أيضا.

وإذا قال أحد التجار مثلا إن لديه عشرة آلاف ويمكنه أن يكتسب بها مليونا، فإذا لم يستثمرها بالاقتراض من البنك أو من الأثرياء فماذا يفعل؟ فنرد عليه ببساطة: لا بد أن تصبر؛ إن عشرة آلاف تكفيه للعيش فليكتفِ بها. وإذا قيل إن هناك فقيرا يموت جوعا، والأمطار قد تأخرت، والزرع قد تلف، فإذا لم يشتر أدوات الزراعة

فكيف يعمل في حقله، وإذا لم يشتر بذرا فكيف يعمل في زراعته.. هل يموت مع أولاده جوعا؟ ليس أمامه خيار إلا أن يقترض؛ ولكن الناس لا يُقرضونه إلا بالربا.. فماذا يفعل؟ هذا السؤال يمثل صعوبة كبيرة.. والمرء يتحير ولا يجد جوابا. من السهل أن نقول لتاجر غني يريد توسيع عمله ألا يقترض ولا يتعامل بالربا وأن يكتفي بما عنده؛ ولكن ماذا نقول لشخص فقير في مثل هذا العسر الشديد؟ لو قلنا فلتصبرْ على جوعك، فكأننا نقول له: مُتْ أنت وأولادك! ولكن مثل هذا الجواب غير معقول. يجب أن يكون عندنا جواب يطمئن له السائل وتطمئن نفوسنا أيضا. فما هو الحل الذي يقدمه الإسلام لمثل هذا الإنسان ؟ لو نظرنا وجدنا أن الإسلام يقترح أن بوسع هذا المعسر —إذا كان عنده عقار —أن يرهنه ويأخذ المال. ولكن إذا لم يكن لدى الفقير المعسر عقار أو شيء يرهنه، أو كان ما عنده لا يمكن الاستغناء عنه كأرض يزرعها مثلا أو معدات يعمل بها.. لو رهنها عند صاحب المال ما استطاع أن يعمل ويسدد دينه.. فالإسلام عندئذ يقدم له حلا عن طريق ما فرضه من ضريبة على الأثرياء؛ فيمكن أن تُستخدم لإعانة مثل هؤلاء الفقراء . ومن ناحية أخرى أوصى الإسلام أنه إذا لم تكف هذه الضريبة فعلى المعارف والأصدقاء من أهل الحي مثلا أن يُقرضوه قرضا حسنا، ثم يعطوه الوقت الكافي للسداد، فقال (فنظرة إلى ميسرة)، أي فلْينظُروا المدين حتى يصلح حالته الاقتصادية بطمأنينة كي يسدد دينه. وفي مثل الجو الإسلامي لا يضطر هذا المعسر إلى اقتراض المال بالربا لأن حاجته قد سُدَّت.

يقول البعض إنه لا يمكن للقوم التقدم والازدهار في هذا العصر إلا بالتعامل الربوي. هم كاذبون. لقد كان بين الصحابة من يملك عشرين مليونا (أسد الغابة، ذكر عبد الرحمن بن عوف).. فهل كانوا يتعاملون بالربا؟ لا، إنهم كانوا يعتبرون الربا حراما، فمن الخطأ القول بأن استثمار المال وازدهار الأعمال لا يتم إلا بالربا. إذا كان الإسلام قد نهى عن الربا من ناحية، فإنه من ناحية أخرى قد أسس نظام الزكاة ونظام الوراثة، مما يحول دون تكدس الثروة في أيدي أفراد وأسر معينة، فيجد كل مجتهد فرصة ليصبح ثريا، ولا يبقى أمام الفقراء أي عائق. فتحريم الربا أمر حكيم

للغاية. وقد كره الإسلام التعامل الربوي لدرجة أن من يأخذ الربا فكأنه يخرج على الله تعالى ويحاربه. وكما أن الملوك يتعقبون الخارجين عليهم ويعاقبونهم كذلك يقول الله لمن يأخذون الربا ولا يتوقفون عن التعاملات الربوية: استعدوا لحرب من الله تعالى، لأنكم خرجتم عليه (البقرة: ٢٨٠).

كما يقولون: إذا كان التعامل الربوي حراما فكيف يمكن العمل بتعليم الإسلام هذا في زمننا هذا؟

لنعلم أن الدين اسم لنظام، ولا يمكن لنظام أن يأتي بنتائج طيبة إلا إذا توطَّد بصورة كاملة. أما إذا طُبّق بصورة ناقصة فلا يمكن أن يتجلى شأنه. فمثلا في هذه الأيام إذا تحدثت مع أحد ضد الربا قال: لا يمكن العيش بدون الربا. ولا يعني ذلك أن المجتمع قد فسد في هذا الزمن لدرجة أن الإنسان مضطر لأكل الربا. وإنما يعني أن الربا هو العلاج عند المصيبة. مع أن الحقيقة هي أن الربا ليس علاجا لمشاكل الإنسان ، وإنما هو مرض يخلقه الإنسان بنفسه، وعلاجه في الإسلام، ولكن هذا العلاج متوقف على نظام. وما لم يتوطد هذا النظام لا يمكن أن ينتفع منه حق الانتفاع. إنه مثل البيت الذي لا يهيئ الحماية والحفاظة ما لم يكتمل جدرانه وسقفه وأبوابه ونوافذه.. كذلك إذا تم العمل بكل تعاليم الإسلام لم تبق هنا حاجة للربا، ولنجا العالم من أضراره.

يمكن أن يضطر الإنسان للتعامل الربوي للأسباب التالية.

أولا- أن يقترض شخص فقير للعيش.

ثانيا- أن يقترض تاجر أو صانع أو فلاح لتوسيع عمله.

ثالثا- أن يقترض شخص عنده عقار ليدفع شدة حلت به فجأة.

أما في الحالة الأولى ...فكيف يمكن للفقير الذي لا يجد مائة جنيه أن يقترضها ليسددها مائة وعشرة مثلا. والحال السيئ للفلاحين خير دليل على هذا؟ إنّ ضرْب الميت قسوة وظلم بالغ. ما معنى أن يُثقلَ إنسان بالأعباء وهو ميت؟ فبهذا الظلم يتولد ظلم آخر.. إذ إن المقترضين عندما لا يجدون ما يسددون به الديون فإنهم ينكرون أن عليهم أي دين.

وفي الحالة الثانية حيث يكون الاقتراض لتوسيع العمل، فإن الإسلام قد أجاز للفلاح أن يرهن شيئا من العقار، وبذلك منع الإسلام أن يقترض الإنسان ما لا يستطيع سداده، وفي نفس الوقت فتح طريقا لسد حاجته الضرورية.

أما التاجر والصانع فبوسعه أن يعمل ويُشرك غيره في العمل. أما إذا سُمح له أن يقترض مالا بالربا لتوسيع عمله أو تجارته فإنه إذا خسر في عمله أو تجارته فقد أضاع أموال الناس، وإذا نجح اجتمعت في يده ثروة كبيرة، مما يخالف العدل وضرورات المدنية.

وفي الحالة الثالثة وهي الاقتراض مع وجود عقار للخروج من ورطة مفاجئة، فيُفتي العقل في الظاهر أن يسمح له بالاقتراض الربوي، لأنه يستطيع سداد الدين عند اللزوم، فعنده عقار وعنده صلاحية لكسب المال، وفي ضمان لسداد القرض وعدم التلاعب بأموال الآخرين، كما أنه لن يجمع أموالا زائدة بدون وجه حق.. فلا اعتراض عليه كما في الحالة الأولى أو الحالة الثانية، ولكن السؤال الآن أَمِنَ الأفضل أن يُسمح له بأخذ القرض بالربا لينفتح الباب للتعامل الربوي على مصراعيه، أم أن يُبحث له عن طريق آخر للخروج من مأزقه؟ من المؤكد أنه لو سُمح له بالاقتراض الربوي فإن أصحاب الحالة الأولى والثانية عندئذ يطالبون بأن يسمح لهم أيضا بذلك، وهكذا تبقى هذه اللعنة قائمة في الدنيا. فمن الأفضل أن يفتح باب آخر لسداد حاجته.

إن الإسلام بالنظر إلى هذه الأمور كلها قد قدم تعليما مفصلا، ومغزى هذا التعليم هو:

أولا- ضرورة أن يتيسر لكل إنسان الطعام والشراب والثياب والسكن والعلم.

ثانيا- يجب ألا يجتمع عند أحد مال بدون حدود.

ثالثا- يجب ألا يبقى المال مدخرا عند أحد، بل يجب أن تدور الثروة دائما لينتفع بها الجميع.

رابعا- يجب على الحكومة والمجتمع أن يسدا حاجات المضطر حقا.

وتحقيقا للمبدأ الأول فإن الإسلام يأمر الحكومة أن تهيئ للناس الطعام واللباس والسكن وغيرها.. ولذلك أسس نظام الزكاة والخراج، وفرض على الأفراد أداء الصدقة.

وتحقيق للمبدأ الثاني منع الإسلام من الربا التجاري، لأن الثروة تتراكم بلا حدود بسبب الربا. يقوم الإنسان بالمجازفة بأموال الآخرين.. إذا نجح أصبح من أصحاب الملايين، وإذا خسر ضاعت الأموال، وهي ليست له، وماذا يأخذ منه المقرضون؟ قد يسجنونه، ولكن ما جدوى ذلك؟

ومن ناحية ثانية أمر الإسلام بتوزيع الميراث.. أي تفرق أملاكه وأمواله وأرضه على الورثة، ولم يسمح الإسلام للمورث أن يعطي أمواله واحدا من أولاده حتى لا يجتمع ما كسبه في يد واحدة، فينال بعض الناس تفوقا دائما على الآخرين.

وتحقيقا للمبدأ الثالث أسس الإسلام نظام الزكاة والميراث ومنع التعامل الربوي.

وتحقيقا للمبدأ الرابع أسس نظام الزكاة والصدقات والرهن أو القبض أو بيع السَّلم.

وهكذا قدم الإسلام نظاما مكتملا مبينا على هذه الأسس. فإذا طُبق هذا النظام بصورة كاملة، ومع ذلك بقي نقص أو عيب.. عندئذ حق الاعتراض على تعاليم الإسلام. أما إذا عملوا بالنظام الربوي الغربي، وفي نفس الوقت اعترضوا على الإسلام، وقالوا ما هو العلاج الذي يقدمه الإسلام بديلا للربا، فهذا الاعتراض يعتبر لغوا محضا.

وقوله (يتخبطه الشيطان من المس). المس هو الجنون. والجنون يسبب انحرافا في أعمال الإنسان، ويُفقده إعمال الفكر والتدبر. فقوله هذا يعني أن أعمال من يتعاملون بالربا تكون كأعمال شخص ركبه الجنون؛ فلا يتصرف في وقار واطمئنان، وإنما يأتي عمله بسرعة وعجلة وعدم مبالاة. كذلك آكلو الربا. تكون أعمالهم موصومة بعدم الأناة واللامبالاة وقلة الحذر. ومن الملاحظ عموما بين المتعاملين بالربا أنهم يثيرون فتنا تؤدي إلى الحروب لكي تستثمر أموالهم. فكأنهم كالمجنون الذي لا يبالي بالنتائج.. لأنهم يعطون أموالهم لتربو بالربا دون نظر إلى

النتيجة والمال. كل همهم أن تحدث الفتن، ويقترض الناس منهم الأموال بالربا.. وهكذا تزداد ثروتهم.

ثم إن الحكومات الكبيرة تقترض الأموال بالربا بما يفوق قدراتها، ثم تبدأ في الحروب الدموية غير مكترثة بالعواقب، والحقيقة أن الحروب الطويلة التي تنهك الأمم وتسحقها سحقا، ويُقتل فيها الرجال، وتترمل النساء، ويتيتَّم الأطفال بالملايين، إنما تطول وتستمر فقط بدعم مالي من أموال الربا. ففي الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)بلغت تكلفة الحرب للحكومة الإنجليزية سبعين مليون روبية يوميا، أما الحكومة الألمانية فكانت تتكلف أكثر من ذلك. ولو لم يكن هناك طريق الأموال الربوية لما استطاعت حكومة ألمانيا تحمل هذه النفقات لسنة واحدة فقط، ولنفدت مدخراتها في فترة أقل من ذلك. ولكنها غطت نفقاتها هذه عن طريق أموال الربا لسنين طويلة. كان الربا هو الأساس لهذه الحرب. صحيح أن دول الحلفاء حاربت دفاعا. ولكن ما الذي شجع ألمانيا على شن الحرب؟ إنه الربا. كانت الحكومة الألمانية ترى أنها تستطيع في حالة الحرب الحصول على المال بطريق الربا لمواصلة الحرب. لو كان باب الحصول على الأموال بالربا مسدودا أمامها ما فكرت في استمرار هذه الحرب الكبيرة، لو أنها فرضت الضرائب مباشرة على الناس ما استمروا في الحرب لسنة واحدة، ولحدثت ضجة في البلد وقالوا: لا نستطيع تحمل هذه الأعباء، ولكن الحكومات تترك الناس غافلين عن الأعباء الثقيلة التي تتحملها الحكومات لإطالة الحرب.. مستعينة بأموال اقترضتها بالربا.

فالربا من أهم أسباب الحروب. ولذلك ذكر الله مسألة الربا بعد ذكر الحرب. لأن للربا صلة عميقة بالحروب.

ثم قال (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا).. أي أنهم يأكلون الربا بحجة أنه نوع من التجارة. فيرد الله عليهم مفندا قولهم: (وأحل الله البيع وحرم الربا)؛ إنهما في نظركم سيان، ولكن الله لا يراهما كذلك، بل أحل البيع وحرم الربا، فتحليله لشيء وتحريمه لشيء آخر يبين أنهما ليسا سِيَّيْن، وما دام الله قد منع أحدهما فلا بد أن وراءه حكمة. وقد سبق هذه الحكمة من قبل.

والواقع أن المدنية التي يريد الإسلام توطيدها إنما تتأسس على الإحسان للآخرين والنهوض بالفقراء، ولكن المتعاملين بالربا لا يعرفون الإحسان للآخرين، وإنما ينظرون دائما إلى ازدياد ثروتهم، ولو بخنق الآخرين. فما دام التعامل الربوي يسدّ باب الإحسان للآخرين والنهوض بالفقراء، ويفتح باب الحروب على مصراعيه.. لذلك نهى الله عنه نهيا تاما.

أما إيجار البيت والمحل فهذا شيء آخر، لأن هذه الأموال تؤخذ في نظير استهلاك المبنى الذي قد يتهدم ويحتاج إلى صيانة وإصلاح، ولا بد أن يكون هناك ضمان لذلك. وكذلك التجارة شيء آخر، لأن فيها تبادل مال مكان مال آخر. ومن الحمق إذن اعتبار البيع والربا سِيَّيْن.

وقال (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله).. من جاءته نصيحة من الله فارتدع بسماعها عن التعامل الربوي، فإننا لن نسأله عما سبق منه من تقصيرات، فعليكم أيضا أن تفوضوا أمره إلى الله، وتقبلوا منه توبته. أما إذا رجع عن توبته وتعامل بالربا فلا بد أن يستحق العقاب.. قال (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).. فأشار بذلك إلى أن الناس يقولون لا فرق بين الربا والبيع، ولكن لِم لا يفكرون في أنه إذا لم يكن بينهما فرق فلماذا أحل الله أحدهما وحرَّم الآخر؟ ثم لماذا عفا عن الذين انتهوا عن التعامل الربوي، ولماذا يعاقب من يرجع إلى الربا مرة أخرى؟ هذا دليل على أن الربا والبيع لا يتماثلان. النتيجة الحتمية للربا هي النار.. سواء كانت في صورة حروب، أو في صورة فتن وفساد، ولكن البيع لا يؤدي إلى هذه النتيجة. ثم إن ضرر الربا هذا ليس مؤقتا، بل تستمر نار الفتن هذه في الاشتعال ما دامت اللعنة الربوية مستولية على العالم. وإلى ذلك يشير قوله (هم فيها خالدون).

الترتيب والربط:

في الآيات السابقة ذكر الله إنفاق المال على الفقراء في سبيله. وقد يظن بذلك أحد: لماذا يُعطى المال بالربا حتى يجد الفقراء ما يسدون به حاجتهم، وكذلك ينفق

المنفقون بشوق ورغبة؟ فيبين الله أن الذي يعطي الأموال بالربا يكون حاله كحال المجنون، ويصبح كدودة العَلِق يمتص الدماء، ولا يقدر على التفكر والتدبر، ولا تبقى فيه عاطفة المواساة والمؤاخاة. ثم إن المرابي يصبح كسولا.. يعرف أنه سوف يحصل على المال في كل حال، ولا حاجة له في العمل المنتج، ويريد الإسلام أن يجتهد كل إنسان ويصبح وجودا نافعا للبلد والشعب.

ثم ذكر الربا بعد الصدقات أيضا، لأن الذي يتخلّى عن أمواله لله.. أي ينفقها في سبيله تعالى.. يسهل عليه أن يَدَعَ أموال الآخرين الربوية ولا يأخذها.

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(٢٧٧)

شرح الكلمات:

يمحق- محق الشيء أبطله ومحاه. ومحق فلانا أهلكه. ومحق الله الشيء: نقصه وذهب ببركته (الأقرب).

يُربي- أربى الشيء: جعله يربو أي يزداد (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى إنه يمحق الربا ويربي الصدقات.. أي أنه سوف يحقق ازدهارا لمن يتجنبون التعامل الربوي ويهتمون بالصدقات. وفي هذا نبأ بأنه سيأتي على الناس زمان يعملون فيه بتعاليم الإسلام بصورة كاملة، ويتم القضاء على الربا الذي يبدو سببا في زيادة المال.. أما الصدقات التي تبدو نقصا في المال فسوف يباركها الله تعالى ويزيدها. وكأن النظام القديم سوف يُستبدل بنظام جديد. وسوف يتوطد حكم القرآن والإسلام، وكل هذا سوف يحدث بيد الله تعالى.

إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٨)

التفسير: ورد في الآيات السابقة حضٌّ كبير على الصدقات.. وقد يظن البعض بسببها أنه يكفيهم للنجاة أن يقوموا بالصدقات، فأزال الله هنا هذه الشبهة وقال:

إن ترك الربا وإعطاء الصدقات لا يكفي، بل لا بد للإنسان من القيام بالأعمال الصالحة بكل أنواعها، وأن يقيم الصلاة مواظبا عليها، ويؤدي الزكاة. إن النجاة لا ينالها الإنسان بالاعتماد على جانب واحد من الأحكام.

وتفند هذه الآية الخطأ الشائع بأنه يكفي لدخول الجنة أن يقول المرء بلسانه (لا إله إلا الله)، ولا حاجة له في القيام بالأعمال الصالحة. يقول الله تعالى: إن قولكم هذا خطأ؛ ما لم يكن الإيمان مصحوبا بصالح العمل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وما لم يكتمل الإيمان بالله والشفقة على خلقه.. لن تتيسر النجاة لأحد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢٧٩)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ(٢٨٠)

شرح الكلمات:

فأذَنوا- أذن بالشيء: علمه (الأقرب). فقوله تعالى (فأْذَنوا بحرب من الله) يعني اعلموا وتيقنوا بحرب من عند الله.

رؤوس أموالكم- رأس المال هو المال الخالي من الربح، يقال: "أقرضني عشرة برؤوسها، أي قرضا بلا ربح فيه فَيُرَدّ عليه رأس المال فقط" (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: أيها المسلمون، اتركوا أموال الربا وإلا فاستعدوا لحرب من الله ورسوله. كان في هذا القول وعيد شديد للمسلمين ، ولكن الأسف أنهم خالفوا هذا التعليم، ورأوا النتائج الوخيمة لهذه المخالفة. فانتُزعت منهم أراضيهم وعقاراتهم، ووقعت في أيدي الآخرين، وأمسوا مفلسين محتاجين. بل إن التعامل الربوي هو الذي كان وراء سقوط كل الحكومات الإسلامية الأخيرة. لقد دُمِّرَت إما لأخذ الربا أو لإعطاء الربا. إذا اقترضوا بالربا بدأ المقرضون يثبتون أقدامهم في بلاد المقترضين شيئا فشيئا، مرة بعقد صفقة لإنشاء سكك حديدية، ومرة لحفر المناجم، وتارة لغير ذلك.. بالتدريج يستولون على البلد كله. أما إذا كان المسلمون

هم المقرضون بالربا.. فكلما توترت العلاقات بينهم وبين البلاد الأخرى كان المقرضون منهم يميلون إلى العدو الأجنبي لحماية مصالحهم المالية لديهم، وهذا ما فعله المسلمون في ولاية (لكناو) وفي ولاية (أَوده) بالهند، فقد أقرضوا الآخرين بالربا، وجمعوا كثيرا من الأموال في البنوك الإنجليزية، وعندما هاجم الإنجليز ولاية لكناو، هددوا الأثرياء بمصادرة أموالهم المودعة في البنوك الإنجليزية، وكانت النتيجة أن هؤلاء قبعوا صامتين لا يحركون ساكنا لتأييد الحاكم المسلم. مع أنه لو قُتل لص أو قاطع طريق مجرم لثار أهله وأقاربه، ولكن هؤلاء المسلمين المرابين لم يكونوا مستعدين للوقوف مع حاكم الولاية المسلم أو أن يثأروا لقتله. فمن الناحية السياسية أيضا كان تعاطي الربا شرا وبيلاً على المسلمين .. ذلك لأنهم خالفوا أمرا إلهيا واضحا مخالفة صريحة. إن الحكومات الأخرى تتعامل بالربا ولا تتضرر كل هذا الضرر الذي لحق بالمسلمين، ولذلك سبب روحاني.. وهو أن الله تعالى ترك أتباع الديانات الأخرى وحالهم.. كما ينبذ الأب ابنه العاق ويتركه وشأنه ولا يبقى معه على صلة، ولكن المسلمين بالنسبة لله كالابن الحبيب إلى أبيه. كلما خالف المسلمون أوامر الله وجّه إليهم لطمة كما يفعل الأب مع ابنه ذلك لأنه الله -تبارك اسمه- يريد إصلاحهم. أما إذا ترك مسلم دينه الإسلام واعتنق دينا آخر فإن الله يقطع صلته به، ولا يمد يد الإصلاح نحوه في هذه الدنيا. المسلمون من ناحية يعترفون بكل قوة بصدق نبيهم محمد ﷺ، ومن ناحية أخرى يخالفون أوامره، فتمتد يد الله لعقابهم، وتقوم بتأديبهم من وقت لآخر. أما الكفر فلا يُعاقَب عليه الإنسان في هذه الدنيا بل في الآخرة. الكافر الذي لا يؤذي غيره، ويعمل بحسب ما يفهم عقيدته، فإنه لن يؤاخَذ في هذه الدنيا، ولكن الذين يدينون بالإسلام ومع ذلك يخالفون أوامره فإنه يُعاقبون في الدنيا كي يرجعوا إلى ربهم، ولا تنقطع صلتهم به كلية، صحيح أن الحكومات غير الإسلامية أيضا تعرضت للسقوط والانحطاط.. ولكن كان ذلك لأسباب سياسية، أما الحكومات الإسلامية فدُمّرت وقُضِي عليها فقط لأنها تعاملت بالربا مخالفة أوامر الله.

وقوله تعالى (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) يتبين منه أيضا أنه ينبغي مقاطعة الذي يتعامل أخذا وعطاء بالربا مقاطعة قومية.. لأنه يخرج على الله ويخالف الله ورسوله في صريح أوامرهما.

ثم يقول (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم). لنتذكر أن هذا الأمر خاص بأولئك الذين أَعطوا أموالا ليحصلوا منها على الربا، ولكنهم تابوا بعد ذلك، يقول الله لهم: إذا تبتم عن التعامل الربوي فيجوز لكم أن تستردوا رؤوس أموالكم، وقد يمكن أن تكونوا قد حصلتم إلى الآن على ما يزيد على رأس مالكم أيضا.

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٨١) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ(٢٨٢)

شرح الكلمات:

نظِرة –النظرة: التأخير والإهمال في الأمر (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: إنكم لو عاملتم الناس بالحسنى اليوم، وراعيتم الرفق معهم عند تقاضي أموالكم التي أعطيتموها كقرض حسن، فلسوف يعاملكم الله أيضا بالرفق عندما يحاسبكم، ويعفو عن سيئاتكم. أما إذا لم تتعالموا معهم اليوم بالرفق فلن تجدوا من الله معاملة بالحسنى يوم القيامة. وهذا هو نفس الأمر الذي نبهنا إليه النبي ﷺ مرارا بقوله (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) (الترمذي، البر).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٣)

شرح الكلمات:

تداينتم_ تداين القوم استدان بعضهم من بعض (الأقرب).

يُملِل- أمللت الكتاب على الكاتب إملالا وأمليت عليه إملاء: ألقيته عليه، أي قلت له فكتبه عني (الأقرب).

سفيها-السفيه: قليل العلم؛ الجاهل (الأقرب). قال الإمام الشافعي هو المسرف (روح المعاني). وهذا المعنى أميل إليه. فقد ورد في القرآن (أنؤمن كما آمن السفهاء) أي يقول المنافقون: نكفر بمحمد ونحافظ على أموالنا ونحميها من النفاد، ولكن هؤلاء المسلمين لا يعرفون كيف يحافظون عليها، إنهم بإيمانهم يضيعون أموالهم.

التفسير: في الآيات السابقة بين الله سببا من أكبر أسباب دمار الأمم، وهو الربا. وهنا بين سببا آخر لانحطاط الأمم فقال: إن الناس لا يأخذون الحيطة والحذر فيما يتم بينهم من معاملات. عندما يقرضون أحدا مالا، فإنهم –بزعم المحبة والصداقة بينهم –لا يحددون موعدا للسداد، ولا يضبطونه كتابة، وعندما يرون المقترض لا يرد المال يبدأ الشجار والخصومة، ويصل الأمر إلى رفع القضايا إلى المحاكم،

وتتحول الصداقة إلى عداوة. يقول الله تعالى: لا تفسدوا العلاقات بينكم، بل عليكم التمسك بنصيحتين منا عند التعامل: أولا- عندما تتداينون حدِّدوا موعد سداد القرض. وثانيا –اكتبوا التعامل في وثيقة واضبطوه. ومن أكبر منافع هذا أن المقترض سيفكر قبيل اقتراضه ما إذا كان بوسعه سداده في هذا الموعد أم لا. ثم إنه بعد أخذ الدَيْن سوف يشعر دائما أن عليه سداد هذا الدين في هذا الموعد، وبالتالي سوف يجتهد لسداده. ومن فوائد هذا التسجيل التحريري أيضا أن يبقى المدين مطمئنا لفترة معينة، فلا تحيطه المخاوف: متى سيفاجئني صاحب المال ويطالبني بسداد القرض؟ كما أن المقرض يعرف متى يذهب للمدين ويطالبه بماله طبقا للتعهد الكتابي.. فيذهب إليه في الموعد المحدد ولا يضطر إلى التردد عليه ومطالبته كل يوم. وهكذا ينتفع الدائن والمدين معا.

ومن فوائد هذا الشرط أيضا أن بعض ضعاف الإيمان قد يحتجون بأننا نقرض المال بالربا لأن المدين هكذا يكون دائما مهتما بسرعة أداء ما عليه من دين، ويبذل جهودا للتخلص من أداء هذا العبء الواجب، ولكن إذا لم يكن عليه ربا فإنه لا يهتم بسداد دينه. ولإزالة هذه الوسوسة قال الله تعالى: إذا تداينتم بدين وجب أن تكتبوه كمعاهدة بأن المدين سوف يسدد الدَيْن في موعد محدد، وهكذا تُحفظ أموالكم ويشعر المدين بمسئوليته.

ولكن لا يعني هذا أن الدَيْن إذا كان إلى أجل مسمى فاكتبوه، أما إذا لم يكن إلى أجل مسمى فلا بأس إذا لم تكتبوه. ذلك لأن الإنسان إذا أقرض المال لغيره فإنه ولا شك يتوقع أنه يسترده بعد أجل مسمى، قصيرا كان ذلك الأجل أم طويلا، وله كل الحق في أن يطالب بسداده بعد هذه المدة. لا يحدث أبدا أن يُقرض أحد غيره مالا ولا يفكر في استرداده. إذا أعطاه هدية أو معونة فهذا أمر آخر. ولكن المال المسمى قرضا لا بد أن يكون إلى أجل مسمى.. سواء ذُكر هذا الموعد باللسان أم لا. أما إذا لم يعط هذا المال لأجل مسمى، بل أعطاه لساعة أو ساعتين أو ليوم أو يومين فليس هناك إثم في ألا يكتبه الإنسان.

وللأسف أن المسلمين لا يهتمون بالأمرين: فلا يضربون موعدا لسداد الدَيْن بسبب المحبة والصداقة بين الطرفين، ويقولون: ترد الدين كما شئت، كما لا يضبطون هذه المعاملة خطِّيًا. مما يؤدي إلى كثير من المفاسد ويجنون ثمارا مرّة لهذه المخالفة.

ثم قال (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) وهذا أمر ثالث. يجب أن يكون كاتب هذه المعاهدة شخصا ثالثا غير الدائن والمدين، وأن يكتب بالعدل والإنصاف.. فلا يضيف ولا ينقص من المعاهدة شيئا، وإنما يكتب ما يملي عليه.

ثم أمر (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب). ويعني قوله (كما علمه الله) أن يكتب بقدر ما علمه الله من الكتابة. ويمكن أن يعني أيضا أن يكتب لأن الله قد أنعم عليه وعلّمه الكتابة، فيجب أن ينفع الناس كما تفضل الله عليه، ولا يرفض مساعدة من يحتاجون إلى الكتابة، ولا يتركهم للمعاناة.. أي أن يُحرَم الناسُ المحتاجون للقرض لأنهم لم يجدوا من يكتب لهم.

ثم قال (وليملل الذي عليه حق)، وهذا أمر رابع، أي إن يملي هذا الصك أو المعاهدة مَن أخذ الدين، وفي هذا حِكمة كبيرة. الظاهر يقتضي أن يملي صاحب الحق أي الدائن، ولكن الله لا يأمر بذلك، بل فرض هذه المسئولية على المدين، ذلك أن المدين عند تحقق حاجته بأخذ المال يشعر بشعور الفرح والرضا ولا يفكر في مقدار المال. فمن الممكن بعد سداد حاجته أن يدعي عدم إدراكه لما كان يُكتب.. لذلك أمر الله أن يملي المدين بنفسه لكي يكون هناك اعتراف بلسانه. أما صاحب المال فإنه يكون حذرا عندما يُعطي المال لأنه ماله، ولن ينسى في أي حال أنه أعطى كذا من المال.

والسبب الثاني أن هذه المعاهدة الخطية تبقى محفوظة لدى الدائن وعنده الفرصة ليقرأها ويتعرف على ما فيها من خطأ أوصواب، أما المدين فإنه لا يحتفظ بها، وإذا لم يملل هو بنفسه وبحذر ما يُكتب فيها وقت التعاهد فهناك احتمال أن يتضرر، ولذلك سوف يملي بكل حرص.

ثم قال (ولا يبخس منه شيئا)، وهذا أمر خامس بألا يُنقص المدين في إملائه أي شيء من الدَيْن بل يمليه صحيحا.

وهنا ينشأ سؤال: أنه لا يمكن أن ينقص من الديْن، لأن الطرفين موجودان وجها لوجه، فلماذا أمر ألا يبخس منه شيئا؟ فلنتذكر أن بعض الاتفاقيات أو المعاهدات للقرض تكون عجيبة، يتلاعب فيها الناس بكلمات معوجة مما يؤدي إلى خسارة الدائن، خاصة في الديون التي تكون طويلة الأجل، أو من أنواع مختلفة.. بمثل ما يحدث في حالة الديون بين الحكومات. فبما أن الناس يلجئون عموما إلى المكر والخداع في الاتفاقيات للديون طويلة المدى.. لذلك أمر الله أن تكونوا أمناء عند الإملاء ولا تنقصوا الدين شيئا.

قوله (فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل) يعني لو كان المدين ضعيف العقل ولا يدرك أهمية المعاملات المالية، أو يكون ضعيفا كأن يكون صغير السن أو شيخا هرما، أو يكون غير قادر على الإملاء لسبب مثل الخرس أو الأمية.. فيجب أن يتولى أحد أوليائه الإملاء بالعدل والإنصاف بحسب قانون البلد. فالأصل أن يملي المدين بنفسه، أما إذا لم يستطع فيقوم بهذا الواجب وليه.

ثم قال (واستشهدوا شهيدين من رجالكم)، وهنا جاء الأمر السابع، فقال يجب أن يشهد على هذا الصك أو المعاهدة شهيدان من الرجال الذين تعرفونهم وتعتمدون عليهم وتستطيعون دعوتهم والاستعانة بهم وقت الحاجة بسهولة، فلا يكون شخصا من غير بلدكم أو مسافرا أو أجنبيا، فيكون هناك خطر ضياع شهادته ولا تعرفون أين تجدونه عند الحاجة.

وقال (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وهذا أمر ثامن.. أي إذا لم يتوفر رجلان فيمكن الاستشهاد برجل واحد وامرأتين.. على أن يكونوا جميعا ممن ترضون. وذكر سبب النص على امرأتين بدل رجل واحد، وقال: إذا نسيت واحدة منهما ذكَّرتها الأخرى. وقوله (إحداهما) يدل على أن أي واحدة منهما قد تنسى، ولا يمكن الجزم والتحديد أيتهما التي سوف تنسى. وبناء على هذه الآية من الممكن اتخاذ امرأتين كشاهدتين على حدث واحد أمام المحكمة في وقت واحد، فتقول إحداهما

إن الحدث جرى هكذا، وتؤيدها الأخرى في قولها أو تصححها. فكما يجيب الشاهد على أسئلة المحكمة بعد تفكر وتدبر..كذلك تتفاهم المرأتان معا وتتفقان على رواية الحدث لتنقلاه للقاضي. والحكمة في اعتبار شهادة امرأتين معادلة لشهادة رجل واحد هي أن الذي اعتاد ممارسة عمل في مجال ما يكون أكثر خبرة فيه من الآخرين. والرجل عموما يمارس من الأعمال ما يتصل بالمعاملات التجارية والشئون العامة والقضائية ويدرك مسئولية الإدلاء بالشهادة. لذلك فهو يحفظ تفاصيل الأحداث بدقة، ويدلي ببيانه بحذر واحتياط. أما النساء فإنهن يعملن في البيت عموما، فيحفظن ما يتعلق بالخصومات العائلية أكثر، ولكن لا يكون لهن دخل عادة بالمعاملات الخارجية الأخرى ولا يعرفن كيف تجري الأمور في المحاكم. لذلك يمكن أن لا تحفظ المرأة بعض الأمور حفظا كاملا، ومن أجل ذلك اعتبر الله شهادة امرأتين مساوية لشهادة رجل واحد.

أما قوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) فقد قال البعض إنه بدلٌ من (رجالكم). وقال البعض إنه صفةُ (فرجل وامرأتان) (روح المعاني). ولكن المفسر أبا حيّان قال إنه متعلق بـــ(استشهدوا). وهذا هو الصحيح، لأن شرط الأهلية والرضى يشمل الرجال والنساء، ولا يخص الرجال دون النساء ولا النساء دون الرجال.. أي أن يكونوا جميعا مرضيين عند الفريقين، وفيهم الأهلية للإدلاء بالشهادة حتى يُعتبروا شهود عدل.

وقوله (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) هذا أمر تاسع.. أي أن الشهداء إذا دعوا للإدلاء بالشهادة فلا يرفضوا. بل يجب أن يدلوا بها بصدق وبدون خوف من سخط أحد الفريقين.

قوله (ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله). هنا ذكر (أجله) ليشير إلى الأمر السابق المذكور في قوله تعالى (إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) فلا يعني ذلك ألا تكتبوا القرض الذي لا أجل له، أو أن تكتبوا موعد السداد فقط وتتركوا القرض مبهما، وإنما يعني أن تكتبوا بيانات القرض كاملة، ومدة السداد بصفة خاصة. وبما أن (إلى) بمعنى (مع) أيضا فقد يكون الأمر بأن تكتبوا القرض مع

أجله، وكأنه يقول: اكتبوا مبلغ القرض مع مدة السداد وأسماء الشهود لكي لا يكون هناك فرصة للخيانة.

ثم قال (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة) أي أن هذا الأسلوب أدعى لتوطيد العدل وللمحافظة على الشهادة سليمة صحيحة. وبدون هذا القانون لا يتوطد العدل ولا تبقى الشهادة سليمة.

وفي قوله (وأدنى ألا ترتابوا) بيّن فيه أنه باتباع هذا التعليم ستكونون بمأمن من الوقوع في الوساوس والشبهات فيما يتعلق بصدق وأمانة بعضكم البعض، أي تكونوا في اطمئنان من ناحية المحافظة على أموالكم فلا تضيع.

ثم قال (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم) وبه استثنى من هذا القانون موضوع التجارة الحاضرة أمام الطرفين، ففي هذا الحال لا إثم ولا حرج إذا لم يكتبوا هذا التعامل، لأن هذا ليس دَيْنا. فلو كانت بضاعة موجودة أمام الأطراف وقال التاجر: بضاعتي في المخزن، ادفع مبلغ كذا وأحضرها لك من المخزن.. فلا حرج عندئذ في أن يعطيه المبلغ دون كتابة تعهد خطّي. ويتعرض التجار كثيرا إلى مثل هذه المواقف والتعاملات كل يوم.

غير أنه يتجلى من قوله (فليس عليكم جناح ألا تكتبوها) أنه في وقت التجارة ليس من الإثم ألا تكتب، ولكن الأفضل أن تكتب في إيصال كما هي العادة في الشركات والتّجّار الإنجليز.. فهم إذا اشترى المرء منهم شيئا أعطوه إيصالا، وبذلك تُحسم كثير من النزاعات والخصومات، ولا يمكن أن يتهم أحد غيره بالنقص أو السرقة وغير ذلك.

فهنا يذكر الله تجارة السلم وتجارة النقد. في تجارة السلم لا بد من تعيين المدة لسداد المبلغ وكتابته أيضا، وكذلك من المفروض أن تكون هناك كتابة إذا أخذت البضاعة ووُعد بتسديد المبلغ فيما بعد. أما إذا تمت الصفقة نقدا.. أي أخذ السلعة ودفع الثمن فليست الكتابة فرضا في هذه الحالة، وإن كانت العبارة تنمُّ عن أن الكتابة أفضل. أما إذا لم تكن هناك كتابة فيجب أن يكون هناك شهود على التبايع كما

هو ظاهر من قوله تعالى: (وأشهدوا إذا تبايعتم) حتى لا يتهمه صاحب البضاعة بالسرقة ولا تحدث فتنة.

ثم قال (ولا يضار كاتب ولا شهيد) وهذا هو الأمر الحادي عشر بصدد المعاملات. يجب ألا يكون استدعاء الكاتب والشهيد إلى المحاكم بدون إمدادهما بالنفقة اللازمة حتى لا يتضررا. وإذا كان الكاتب محترفا فلا يُجبر على الكتابة بدون أجر، بل يُدفع له أجر مناسب، ويجب ألا يُدعى الشاهد على حساب وقت عمله ورزقه.. فيجب عدم تعريض أحد منهما إلى الضرر بأي شكل.

ثم قال (وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم).. أي إذا ضايقتم الكاتب والشهيد فترتكبون مخالفة لأوامرنا وتلقون نير الطاعة عن أعناقكم. وقوله (بكم) يعني فيكم: أي أن هذا الأمر يخلق فيكم عادة الفسق والخروج عن الطاعة.

ثم قال (واتقوا الله ويعلمكم الله، والله بكل شيء عليم). أي هذه أحكام مدنية يتوقف عليها رقي مجتمعكم، فيجب أن تضعوها في الاعتبار دائما، وتدركوا أنكم كلما ازددتم تقوى بوركت أعمالكم، وسوف يعطيكم الله من علمه، فإنه لا يخفى عليه طريق للرقي، ويعلم كل شيء علما تاما.

وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٢٨٤)

شرح الكلمات:

رِهان- جمع رَهْن. والرهن: ما وُضع وثيقةً للدّيْن. قيل: الرهن لغةً الحبسُ مطلقا، وكثيرا ما يطلق على الشيء المرهون (الأقرب).

أؤتُمن- ائتمنه: عدّه أمينا، أو اتخذه أمينا (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: إذا كنتم في سفر ولم تجدوا من يكتب لكم فيجب أن تعطوا المقرض رهنا حتى لا يخشى على ماله من الضياع.

من ذلك يمكن للإنسان أن يقدّر كيف أن الإسلام يحث على أخذ الحيطة وبعدَ النظر في شأن الدَيْن. وكيف أنه يحافظ على أموال المسلمين وإيمانهم عند كل خطوة. إذا لم تُراعَ هذه القواعد فقد ينكر المدين دَيْنه، ويضارَّ هو نفسه في إيمانه ضررا لا يمكن تداركه، كما يضارَّ الدائنَ ماليا. وقد وصف الإسلام علاجا لمثل هذه المخاوف فقال أولا – بوجوب تسجيل عملية التداين كتابةً على شكل اتفاق أو معاهدة بين الطرفين تُسجَّل عليها شهادة الشهود. وثانيا- بوجوب أن يضع المدين رهنا عند الدائن إذا لم يتم تحرير المعاهدة، كأن يكونا في سفر و لم يجدا كاتبا لتسجيل الدين. والرهن جائز في الحضر أيضا، لأن الرسول ﷺ ترك درعا له عند رجل استدان منه (مسند أحمد، ج٦،ص٤٢)، ولكن ذُكر الرهن في السفر لأن هناك مشقة عدم يسر الكاتب والشهود.

ثم استمر في توجيه النصح فقال (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه). إذا اطمأن الرجل إلى أخيه وأعطاه المال قرضا بدون رهن.. فعلى المدين أن يكون أمينا شاكرا لهذا الصنيع من أخيه، ويرد له المال في موعده، عند المطالبة به بدون أي تحايل أو تهرب، وليتق الله ربه، هنا سمّى الله القرض أمانة لأن الناس يرون من الواجب أداء الأمانة عموما، ولكنهم يتكاسلون ويتغافلون عند سداد القرض. يقول الله تعالى: الدّيْن في نظري أمانة.. فهل تتكاسلون في أداء أمانةِ مَن سمح لكم باستخدام هذا المال وأحسن إليكم؟ ما هو الفرق بين الأمانة والقرض؟ الأمانة هي ما يضعه الإنسان عند غيره عندما لا يكون الأمين في حاجة إليه، والقرض يعطيه الدائن المدينَ عندما يكون المدين في حاجة إليه. فالقرض إحسان أما الأمانة فلا. فمن واجب المدين إذن أن يسدد الدَيْن في وقته مع بشاشة القلب.

وهذه الآية تلقننا درسا ضمنيا للحفاظ على كل نوع من الأمانات، وردها إلى أهلها في موعدها كما صرح بذلك في موضع آخر في القرآن الكريم (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) (المؤمنون: ٩). ونصح الله هنا أن ترك الأمانة عند أحد

فرعٌ هام من فروع المدنية، فتجب مراعاة تقوى الله أيضا عند أداء الأمانة وليس في سداد القرض فقط، ويجب ألا تماطلوا وتُسَوِّفوا عندما يطالب بها صاحبها.

ثم قدّم نصحا آخر فقال (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه).. أي يجب أن تقولوا الحق دائما في معاملاتكم، ولا تحاولوا إخفاء الشهادة أبدا، وإلا يصبح قلبكم آثما. وإذا أثم القلب فأين يبقى نور الإيمان؟

ولم يكن هذا النصح إلى الشهداء فقط، وإنما وجَّهه الله إلى كل من يشارك في المعاملات، وقال: يجب ألا يكون فيكم من يكذب أو يدلي بشهادة باطلة، وليس ذلك فحسب، بل لا يخفي شهادة حقة أبدا، وإلا فرغم أنكم قد تجنون نفعا دنيويا، لكن القدرة على فعل الخيرات تنـــزع منكم، وتصبح قلوبكم مسودّة.

وباختصار، فإن الإسلام قدّم في هذه الآيات تعاليم جامعة وغاية في الشمول لو عمل بها المسلمون لتجنبوا شتى المشاكل المدنية.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٥)

التفسير: يظن البعض أن قوله تعالى (وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم النبي الله) قد نُسخ بقوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها). أي قيل من قبل أنكم تحاسبون على ما في قلوبكم من أفكار، سواء أبديتموها أي نفذتموها، أو أخفيتموها ولم تعملوا بها بجوارحكم؛ ولكنه بعد ذلك نسخ هذا الحكم وقال لن نحمّل أحدا هذا الثقل الذي يفوق طاقته إذ لا أحد يملك قدرة على ما يتولد في قلبه من أفكار (الناسخ والمنسوخ للنحاس).

وهذا القول خطأ.. لأن النسخ يتعلق بتغير الأحوال وليس بأفكار القلب. مثلا، كان أكل لحم الحمر الإنسية مسموحا به في الإسلام، ولكنه حرم فيما بعد.. أما حالة قلوب الصحابة فكانت هي هي لم تتبدل.. أي كما كانوا لا يملكون سلطانا

على أفكارهم القلبية من قبل.. فإنهم أيضا ما زالوا لا يملكونها من بعد؛ فلا معنى للنسخ فيما يتعلق بأفكار القلب.. لأنه إنما تُنسَخ الأحكام التي تتعلق بتغير الأحوال فقط، ولكن أمر الأفكار لا يتغير.

الحقيقة أن هؤلاء لم يدركوا فحوى هذه الآية. لقد ظنوا أن الآية تتحدث عن كل ما يتولد في القلب من أفكار. مع أنها تتحدث عما يخفيه الإنسان في نفسه من أفكار فاسدة وأمور سيئة. إن الأفكار العابرة مغفورة بلا شك، ولا تتناولها الآية. إذا تولدت فكرة سيئة في قلبه، فنفضها فورا.. فهذا ليس إثما، بل حسنة يثاب عليها. فلا مؤاخذة على أفكار القلب ما لم ينفذها الإنسان، أو لم يعزم عزما قويا على العمل بها. فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها.. ما لم تعمل أو تكلم) (البخاري، العتق).

ولكن هناك أفكار تبقى مكتومة وتظل جذروها ثابتة في القلب كعقيدة خاطئة، أو نوايا سيئة لا يزال يوطن نفسه عليها، ولا ينفك يفكر فيها، ويخطط لتنفيذها.. كبُغضٍ أو غلٍّ أو سرقة أو قتل.. فهذه لا تُغفر له هكذا، وإن لم يستطع العمل بها. إذا غفر له عنها بدون توبة فلا يبقى للإيمان حقيقة، لذلك لا بد أن يؤاخَذ عليها، لأن هذه هي أصل كل الآثام. ولذلك يقول الله (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) (البقرة: ٢٢٦)، وقال أيضا (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (الإسراء:٣٧). فالإنسان يحاسب -إلى جانب ما ارتكبه بالعين والأذن- على أفكار كانت تتولد في قلبه بصورة مستمرة. كذلك قال تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة. والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (النور: ٢٠). هذه الآية لا تذكر لهؤلاء أي عمل ظاهري.. وإنما تذكر هذه العقوبة على ما في قلوبهم من نوايا سيئة، وقال أيضا (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) (البقرة: ٢٨٤).

وهناك حديث آخر عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ (قال الله عز وجل: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا) (مسلم، الإيمان).

يتبين من هذه الآيات والأحاديث أن الأفكار الإنسانية على ثلاثة أنواع:

الأول: ما ينشأ في القلب من وسوسة أو فكرة وتزول تلقائيا، فلا ثواب عليها ولا عقاب.

الثاني: تتولد في القلب عقيدة سيئة، أو رغبة شريرة، فيطردها بالتفل على يساره وبالاستغفار والحوقلة.. تكتب له حسنة. لأنه قاومها وطردها.

الثالث: أما إذا لم يطردها واحتفظ بها في طيات قلبه، ظنًّا منه أنها مِلكه، و لم ينفك يفكر ويخطط لتنفيذها. فإنها وإن لم يتمكن من تنفيذها تُحتسب عليه سيئة.

ورد في الحديث أنه اشتد نزول هذه الآية على أصحاب رسول الله ﷺ فأتَوْه ثم بركوا على ركبهم فقالوا: يا رسول الله كلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم وذلّت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) (مسلم، الإيمان).

يتبين من ذلك أن الصحابة الكرام اعترفوا بخطئهم على الفور بتوجيه النبي ﷺ فمدحهم الله وأثنى عليهم. فكيف يمكن أن تُنسخ هذه الآية.. لأنه إنما ينسخ الحكم وليس هنا أي حكم عملي.

الواقع أن الله تعالى قد بيّن هنا ضرورة طهارة الأفكار لتزكية النفس. صحيح أن من المستحيل لكل إنسان أن يبقي أفكاره طاهرة تماما، ولكن يمكن لكل واحد أن يطهر قلبه بطرد كل فكرة سيئة تتولد فيه. مثلا: إذا وسوست نفس أحد أن يرتشي.. فعليه ألا يفكر في حيل للحصول على الرشوة. بل يحاول بكل وسعه نفْضَ هذه الفكرة من قلبه، وإلا تعمقت في قلبه بالتدريج حتى يصعب عليه محوها.

كذلك لو رأى أحد في طريقه مالا أو متاعا وفكَّر أن يلتقطه. فلا يؤاخَذ على مجرد هذه الفكرة. ولكن إذا بدأ يفكر كيف آخذها ومتى أحصل عليها، وبدأ يخطط لذلك.. فهو معرض للمؤاخذة. وباختصار، فإن تزكية النفس تتأسس على طهارة القلب، وقد ألقى رسول الله ﷺ الضوء على أهمية هذا الأمر في حديث آخر يقول: (إن في الجسد مضغة إذا صلُحت صلح سائر الجسد كله، وإذا فسدت فسد سائر الجسد كله.. ألا وهي القلب) (البخاري، الإيمان).

فالطهارة عند الإسلام لا تعني أن يكون الإنسان طاهر الحديث حسن العمل.. بينما يُخفي السيئة في قلبه، وإنما الطهارة الحقيقية هي طهارة القلب.. فغيرُ طاهرِ القلب غيرُ طاهرٍ عند الله تعالى. إذا لم يرتكب أحد سيئة أبدا.. ولكن في قلبه ألْفة للإثم وحب للمعصية ويتلذذ بذكر الإثم فلا يُعتبر صالحا وطاهرا.. ما لم يشعر في قلبه كراهة للمعصية. كذلك هناك كثير من الناس يغضبون، ولكن لا يسبّون باللسان.. أما قلوبهم فتردد أفحش الشتائم، ولا نستطيع القول عن مثل هؤلاء إنهم أطهار، وإنما يكتمون سوءهم.

فطهارة الإسلام هي طهارة القلب، أما الأعمال واللسان فهي أدوات لظهورها. لذلك قال الله هنا إن الإنسان يُحاسب على حال قلبه.. سواء أخفيتم حال قلوبكم أو أبديتموه. ما أروعها حكمة بينها الله هنا إذ قال إن الأعمال واللسان هي للتعبير عن حال القلب.. فالأصل هو حال القلب، وعليه يحاسب الإنسان.. فقال: سواء أبديتم حال قلوبكم أو أخفيتموه.. أي لم تعبروا عن سيئة قلبكم بالعمل واللسان، فإنكم سوف تحاسبون على هذه السيئة.

وقوله (يحاسبكم به الله)..(الباء) هنا يمكن أن تكون لها ثلاثة معان:

أولا- السببية.. والمعنى أن الله سوف يحاسبكم بهذا الطريق.. أي يؤسس أعمالكم على حال القلب، ولا ينظر إلى ظاهرها فقط، بل ينظر إلى النيات أيضا، كما ورد في الحديث: (إنما الأعمال بالنيات) (البخاري، بدء الوحي).

ثانيا –الباء بمعنى (في)، والمراد: يحاسبكم في شأن ما تبدون وما تخفون.. كما قال في آية أخرى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) (البقرة: ٢٢٦).

ثالثا- الباء بمعنى (على) أي يحاسبكم عليه.

وفي قوله تعالى (فيغر لمن يشاء ويعذب من يشاء) بيّن أن الإنسان يجازى بحسب نيته. فالمستحق للعقاب يعاقب، والمستحق للمغفرة يستره الله في كنف غفرانه. ذُكر من قبل أربعة مهام عظيمة للرسول ﷺ وهي: تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، وتزكية النفوس، وحتى الآن في هذه السورة ألقى الضوء على المهام الثلاثة الأولى بالتفصيل، وبداية من هنا يُلقي الضوء على مهمة تزكية النفوس. وكل إنسان يفهم أن تزكية النفوس ليست في وُسع أحد. التزكية تستلزم أمرين: الأول- ترك المعصية، والثاني- التقدم في الروحانية. أما عن ترك المعصية فقال: نخبركم أن كل شيء مِلك لله تعالى، وكل ذرة من السماوات والأرض تحت حكمه، فخذوا فقط ما يسمح لكم بأخذه، وانتهوا عما ينهاكم عنه؛ لأن من يستخدم الشيء بدون إذن ما يسمح من صاحبه يستوجب العقاب. أما في صدد التقدم في الروحانية فقال: كل شيء ملك لنا، وكل خير وبركة تُنال من أيدينا. فإذا عملتم بأوامرنا فإننا نستركم برداء مغفرتنا؛ ونوصلكم بيد قدرتنا إلى عتبة قربنا.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٦)

التفسير: بيّن هنا أن شعار المؤمن -لكي يحقق تزكية النفس- هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعا، وصرح أن الإنسان لا يفوز برضوان الله تعالى ما لم يصلح عقيدته وعمله معا.

ولكن الأسف أن الناس رغم وجود هذه الآية الصريحة.. يظنون أنه يكفي للنجاة الإيمان بالله ولا ضرورة للإيمان بكتبه ورسله وملائكته. مثل هذه الأفكار كانت تجول بذهن الطبيب عبد الحكيم البتيالَوي، وبسببها طرده سيدنا الإمام المهدي من جماعته، وقال بكل حسم وقوة: إن هذه العقيدة منافية للإسلام تماما. الإسلام يوجب الإيمان برسل الله جميعا، وخاصة محمد رسول الله ﷺ، حتى ينال الإنسان النجاة (حقيقة الوحي ١٢٢).

بقوله (لا نفرق بين أحد من رسله) نبه إلى أن رفض أي رسول منهم يجعل الإنسان موردا لغضب الله تعالى. فالإيمان بكل رسول ضروري، سواء كان ذا شرع قديم أو جديد، بعث في الماضي أو يبعث في المستقبل.

لا شك أن هناك فرقا كبيرا بين الرسل درجةً ومكانة. فالمكانة التي تبوَّءها الرسول الكريم ﷺ لم يحزها موسى ولا عيسى ولا أي نبي من الأنبياء عليهم السلام. ولكن فيما يتعلق بموضوع الإيمان بالرسل.. فكما أن الإيمان بمحمد ﷺ ضروري، كذلك —بدون أي فرق—من الضروري الإيمان بموسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء والرسل، ولا يجوز أي تفرقة بينهم في هذا الأمر.

كذلك لا يجوز التفريق بينهم فيما يتعلق بضرورة العمل بما يترل عليهم من وحي الله. صحيح أن درجاتهم مختلفة، ولكن الذي يُترل عليهم كلامه واحد. فمثلا: لو قال أحد إن النبي فلانا أعلى درجة من الآخر، فلذا أقبل ما نزل عليه من الوحي، ولكن هذا الآخر أدنى منه درجة فلا أصدق بما نزل عليه، فمثل هذا التفريق الأحمق هو كقول أحد: لقد أرسل إلي المدير أمره في بريد عادي، ولم يرسله في بريد مسجل، ولذلك لا أعمل به! هل هناك أجهل ممن يقول بهذا العذر أو يقبل به؟ فإذا كان هذا لا يُقبل بالنسبة إلى المدير، فكيف يجوز أن يقال مثل ذلك بالنسبة إلى كلام الله؟ لذلك ذكر الله علامة المؤمنين أنهم قالوا (سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير).. أي أنهم لا يتهاونون ولا يتكاسلون لحظة في طاعة أوامر الله، بل بمجرد أن سمعوا حكمه قالوا: سمعنا وأطعنا من صميم قلوبنا.

(غفرانك ربنا وإليك المصير). هناك فعل محذوف قبل (غفرانك) تقديره (اغفر) والمعنى يا رب، أعطنا نصيبا من غفرانك واعف عنا.

في الآيات السابقة، نبّه إلى تزكية النفوس خاصة. لذلك بيّن هنا أنه الآن قد وُجدت –ببركة القوة القدسية لمحمد رسول الله –جماعة طاهرة تقول (سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير) وتحني رأسها في كل حال عند عتبة الله تعالى.

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافِرِينَ(٢٨٧)

شرح الكلمات:

يكلف–كلّفه: أمره بما يشق عليه (الأقرب). ورد في الحديث (كلِّفنا من الأعمال ما نطيق) (مسلم، الإيمان).

إصرا– الإصر: الثقل؛ العهد؛ الذنب (الأقرب).

لا تحمِّلنا– حمّله الأمر: جعله يحمله وكلّفه بمحله (الأقرب).

التفسير: في قوله تعالى (لا يكلف نفسا إلا وسعها) بيّن أنه لا يأمر الإنسان بما يفوق قدرته أو استعداده. فما دامت أحكامه تكون دائما داخل نطاق قدرة الإنسان، فلا بد أن تكون المسئولية الكاملة عليه. فهو الذي يستحق بالعمل بها نعم الله وهو الذي يستحق بعدم العمل عقوبة منه تعالى، ولذلك أتبعه الله بقوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)، أي إذا عمل حسنا جنى هو نفعه، وإذا عمل سيئا يتضرر هو نفسه.

ونبه هنا ضمنيا إلى الأمور التالية:

أولا– إن المهمة التي أنيطت بالأمة المحمدية في هذا العصر هي في نطاق قدرتها ووسعها، وسوف تُري هذه الأمة العالم في يوم من الأيام بإنجازها هذه المهمة أنهم

كانوا أولى وأحق بها. ولو أن هذه المهمة أنيطت بأمة نبي سابق ما استطاعوا إنجازها.

وثانيا – تذكر هذه الفقرة أيضا فضيلة أخرى للإسلام، أنه وضع في أحكامه كلها مرونة نظرا إلى ضعف الناس وحاجاتهم.. بحيث يمكن العمل بها في أي ظرف. أما الأديان الأخرى فإنها في تعاليمها مالت إلى الإفراط أو إلى التفريط، ففقدت الاعتدال والتوازن الحقيقي؛ وبالتالي زال تأثيرها وحكمها على القلوب. إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يحكم قلوب الناس بفضل تعاليمه الموافقة للفطرة الإنسانية.

وثالثا: إنه ما دامت جميع أوامرنا في نطاق قدرتكم واستعدادكم، و لم نحملكم ما لا طاقة لكم به.. فمن واجبكم الآن أن تعملوا بها حق العمل بأمانة.

رابعا–إن هذه الفقرة تُبطل عقيدة الكفّارة، حيث بيَّنت أن تجنب الإثم ليس فوق قدرة الإنسان ، بل كل إنسان قادر على أن يقهر المعصية إذا أراد. فلا حاجة له إلى أي كفّارة للنجاة، وإنما هناك حاجة لاستثارة قواه الفطرية وحسن استخدامها.

وقوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت): الفرق بين الكسب والاكتساب أن الاكتساب يدل على بذل المزيد من الجهد والمشقة. فباختيار كلمة (الكسب) للحسنة، و(الاكتساب) للسيئة أشار إلى أن الحسنة أمر فطري في الإنسان، ولا يحمّله العمل بها مشقة، ولكن السيئة عمل غير فطري، وإنها تتولد بسوء استخدام القوى الخُلقية، ولذلك يضطر مرتكبها لسلوك طريق يكلفه العناء والجهد.

كما أنَّ هذه الكلمات تشير إلى أن صاحب الحسنة ينال الجزاء في كل حال، ولكن من عمل سيئة فإنما يعاقَب عليها فقط إذا كان قد اكتسبها.. أي ارتكبها قصدًا وعمدًا.

وبعد هذا علَّم الله المؤمنين بعض الأدعية الخاصة لتزكية النفس.. لأن الدعاء هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن الإنسان من رؤية وجه الله تعالى، وتهب له الإيمان الحي بقدرة الله. والدعاء الذي يعلِّمه بنفسه لا يبقى أي مجال للشك في استجابته وقبوله. يقول الله: إن عبادنا المؤمنين يدعون دائما (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)..

يا رب، إذا كنا قد نسينا العمل ببعض الأمور، ووقعنا في بعض الأخطاء، فلا تعاقبنا، بل ارحمنا وعامِلْنا بالعفو.

أثار البعض سؤالا بأن الخطأ والنسيان بمعنى واحد، فلماذا جاء بهما؟

ولكن هؤلاء لا يفهمون أن أخطاء الإنسان في العمل على نوعين: الأول- أنه لا يقوم بأعمال كان من الضروري القيام بها، والثاني — أن يقوم بأعمال واجبة ولكن بطريقة خاطئة. فمعنى (إن نسينا): يا رب، لا تجعلنا نتغافل عن القيام بواجباتنا حتى لا نُحرم من الرقي، فارحمنا من هذا الخطأ والحرمان. ومعنى (أو أخطأنا)..يا رب، احفظنا من أعمال يجب اجتنابها، أو ارحمنا من القيام بواجباتنا بالخطأ. فالنسيان يدل على عدم العمل، والخطأ يدل على العمل على غير الوجه الصحيح. فليس هناك زيادة.. وكل كلمة منهما في مكانها المناسب. ومثال النسيان ما وقع فيه آدم، فقد قال الله عنه (فنسيَ و لم نجد له عَزما) (طه: ١١٦).

(ربنا لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا). والإصر يعني الإثم أيضا. فمعنى الدعاء: يا رب، لا تُلْقِ علينا الإثم كما ألقيته على من قبلنا من الأمم.. أي احمِنا بفضلك من الأعمال التي بسببها يُنسب الإثم إلينا، ويعتبرنا الناس ظالمين مسودّي الوجوه، وينسبون إلينا مختلف العيوب كما حدث للأمم السابقة.

والإصر يعني العهد أيضا، فالمعنى: يا رب، لا تأخذ منا عهدا نستوجب عقوبتك بإخلافه.. كما استوجبتها الأمم من قبلنا.

وهنا سؤال: إذا كان أخذ العهد شيئا كريها فلماذا أُخذت العهود من الأمم السابقة؟ وإذا كان أخذ العهد جيدا فلماذا لا يؤخذ من أمة الإسلام؟ بل كان من الضروري أن يؤخذ العهد من كل فرد منها لأنها خير الأمم.

فلنعلم.. أن هذه العبارة لا تعني ألا يأخذ ربنا أي عهد منا مطلقا، وإنما المراد: يا رب، إذا أخذت منا عهدا فوفقنا للعمل بحسبه حتى لا نعد كالأمم السابقة من الغادرين المخلفين! كأن هذا الدعاء ليس للفرار من العهد، وإنما هو دعاء للتوفيق في أداء ما يتطلبه العهد على أحسن وجه.

والإصر يعني الثقل أيضا. فالمراد: يا رب، لا تضع على كواهلنا ثقلا كما ألقيته على من سبقونا. ولا يعني هذا الدعاء ألا تفرض علينا –مثلا– صلوات كثيرة لا نستطيع أن نؤديها، لأن الله تعالى سبق أن قال (لا يكلف نفسا إلا وسعها)، وإنما يعني: يا رب، لا تفرض علينا عقوبات فرضْتها على من قبلنا بسبب بعض جرائمهم، ولا تجعلنا نرتكب ما ارتكبوه من أخطاء ونجم عنها هلاكهم. لقد عصوك وخالفوا أوامرك، فسلَّطت عليهم حكومات، وفرضت عليهم قوانين ثقلت عليهم و لم يستطيعوا تحملها. فأقِمْنا بفضلك مقاما بحيث لا نرتكب مثل أخطائهم، ولا نتعرض لمثل عقوباتهم التي تفوق طاقة تحملنا.

ولا يعني أن لا حرج عندنا في عقوبة إلهية تكون في نطاق قدرتنا. الواقع أن كل عقاب روحاني يفوق قدرة الإنسان، وإنما هي رذالة الإنسان التي بسببها يتحمل هذه العقوبة، وإلا فإن الإنسان الشريف النفس لا يتحمل حتى أدنى عقوبة. فمثلا إذا كان الإنسان عاشقا فإن أقل سخط من حبيبه يوقعه في قلق وهَمّ، فأحيانا يقول: لم ينظر إلي المحبوب، وأحيانا يقول: لم يتكلم معي، أو تكلم و لم أشعر ببشاشة، ويثقل عليه ذلك حتى يمسي ويصبح في هم شديد. فلا يعني قوله تعالى (لا تحمل علينا إصرا) لا تعاقبنا عقوبة كبيرة، ولكن لا حرج في عقوبة صغيرة.. وإنما المعنى: لا تعاقبنا عقابا كبيرا ولا صغيرا.

ثم هناك من المصائب ما يحل بالإنسان دون جُرم منه. فقد يقع الجار في تقصير ويتضرر الإنسان منه، ويخطئ الصديق فيصيب الصاحبَ نصيبٌ من العقاب.. لذلك علَّم الله المؤمنين الدعاء .. أولا– أن يجنبهم الخطأ والنسيان حتى لا يستحقوا بهما العقاب، وثانيا– علمهم دعاء (ربنا لا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به).. يا رب، لا تعرضنا لموقف يُخطئ فيه مَن حولنا ونتحمل نحن آثار مصائبهم!

ولكن زاد هنا شرطا وقال: (ما لا طاقة لنا به). ذلك لأن الكلام هنا لا يتعلق بسخط الله تعالى، وإنما يتعلق بالمصائب والابتلاءات الدنيوية. السخط الإلهي لا يُتحمل ولو كان ضئيلا، ولكن الأذى البسيط فيتحمله الإنسان. فعندما كان الحديث عن العقوبة الروحانية والسخط الإلهي علَّمنا أن ندعو بأننا لا نستطيع

تحمل أي سخط منك كبيرا أو صغيرا، ولكن عند الحديث عن مصائب الدنيا علّمنا أن ندعو بأن الابتلاء البسيط الذي في طاقتي احتماله فلا حرج منه. لا أقول أن أسير في طريق مفروش بالورود.. غير أني ألتمس منك فيما يتعلق بالابتلاء الذي ليس وراءه سخطك، والذي يمر به الناس عموما.. ألا تحمّلني منه ما لا طاقة لي به. وهذا لا يعني أن المؤمن يريد لنفسه الابتلاء.. ولكن بما أن الله أخبر أنه يبتلي عباده المؤمنين، لذلك يقول المؤمن يا رب، لا أقول لا تختبرني، ولكني أقول ألا تختبرني بما لا أطيقه.

ثم قال (واعف عنا) وهذا في مقابل (إن نسينا).. أي إذا لم نقم ببعض أعمال كان يجب أن نقوم بها، فنتوسل إليك أن تعفو عنا، (واغفر لنا) وهذا إزاء (أو أخطأنا).. أي احفظنا من وبال ما ارتكبنا من أخطاء فيما فعلنا، وكأننا لم نقم بشيء. العفو يعني الرحمة أيضا، والرحمة بمن فاته شيء هي أن يُعطى عوضا عنه حتى لا يتحمل عاقبة نسيانه.. ومن هنا يكون معنى (واعف عنا) أن هيئْ لنا بفضلك ورحمتك ما فاتنا. أما فيما يتعلق بالخطأ في عمل فيمكن تداركه بمحو هذا الخطأ..لذلك قال (واغفر لنا) بإزاء (أو أخطأنا). والغفران يعني المحو أيضا (اللسان). فالمعنى: امح من فضلك ما ارتكبنا من أخطاء في أعمالنا محوا كأنها لم تكن.

فمن ناحية علّمنا أن ندعو كي يسد فراغ أعمال لم نقم بها نسيانا منا، ومن ناحية أخرى أن ندعو ليمحو أخطاءنا فيما عملناه.

(وارحمنا)- أي أن الأخطاء التي نجمت عن الأعمال الخاطئة السابقة، والتي حالت دون رُقِيّنا.. ارحمنا بصددها، وارفع برحمتك وفضلك العوائق الحائلة دون رقيِّنا.

(أنت مولانا).. أنت سيدنا ومالكنا، ولا بد أن ينسب الناس تقصيراتنا إليك بطريق أو آخر. سيقولون: هؤلاء يُدعون (جماعة ربانية) ومع ذلك أصابهم الأذى ووقعوا في المصائب كغيرهم. فيا رب، أنت سيدنا ونحن عبيدك، فارحمنا رحمة السيد لعبده.. حتى لا تُنسَب أخطاؤنا إليك – سبحانك، فتتسبب في حرمان الناس من الهدى. ورد في الحديث أن أبا سفيان في غزوة أُحد هتف بكل قوة: لنا عُزّى ولا عُزّى لكم.. يزهو بتأييد هذا الصنم له، ولكن ليس للمسلمين (عزى) يؤيدهم.

فأمر الرسول ﷺ أن يقول المسلمون: (الله مولانا ولا مولى لكم) (البخاري، المغازي)..أي: والينا وناصرنا هو الله الحي القيوم.. أما أنتم فلا والي ولا ناصر لكم. فما أروعها من شهادة عملية على صدقهم في قولهم (أنت مولانا).. حيث أعلنوا تحت ظلال السيوف أن ربنا قادر على حمايتنا.

وأخيرا علّم أن نستمر في دعاء (فانصرنا على القوم الكافرين).. إننا ضعفاء عديمو الحيلة، وعدونا قوي كثير.. ولن يتحقق لنا النصر عليه ما لم تكن معنا، وما لم تنفخ بفضلك ورحمتك في كل فرد منا روحا تجعله يغلب مائة بل ألفا من الأعداء. لو تفضلت علينا بهذا عندئذ ننجو، وإلا فلا مجال لنجاتنا. فيا رب، اجعلنا غالبين على من يعملون لعرقلة رقي الإسلام، وهيئ لنا أسبابا لنشر دعوتك وإعلاء كلمتك في العالمين.

ثم إن هذا الدعاء ليس لغلبة مادية فحسب، بل إنه أيضا ابتهال خاشع متواضع يلتمس الغلبة الروحانية على الأعداء، ويتوسل به المؤمنون إلى ربهم ومولاهم داعين: إذا كان إيماننا برسولك الكريم.. لم يخلق فينا تغيّرا، بحيث يشعر الناس بفرق روحاني بيننا وبين الكفار، و لم تكن أخلاقنا وسيرتنا أسمى وأحسن منهم، و لم نكن أفضل منهم معاملة.. فإن الدنيا سوف تعيِّرنا: ماذا نفعتهم صحبة محمد والإيمان به؟ إنها لم تُحدِث فيهم أي تغير حسن. فيا رب وفِّقنا بفضلك بإحداث تغيير صالح في نفوسنا نجذب به رحمتك وكرمك، فاجعلنا غالبين على الكفار، بارزين عليهم.. ليس من الناحية المادية فقط.. بل أيضا من الناحية الخلقية والروحانية.. حتى ينتشر دينك في أرجاء الدنيا.